

اقرأ

محمد كرد علي

ديس
مدينة السحر والشعر

مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

محمد كز علي

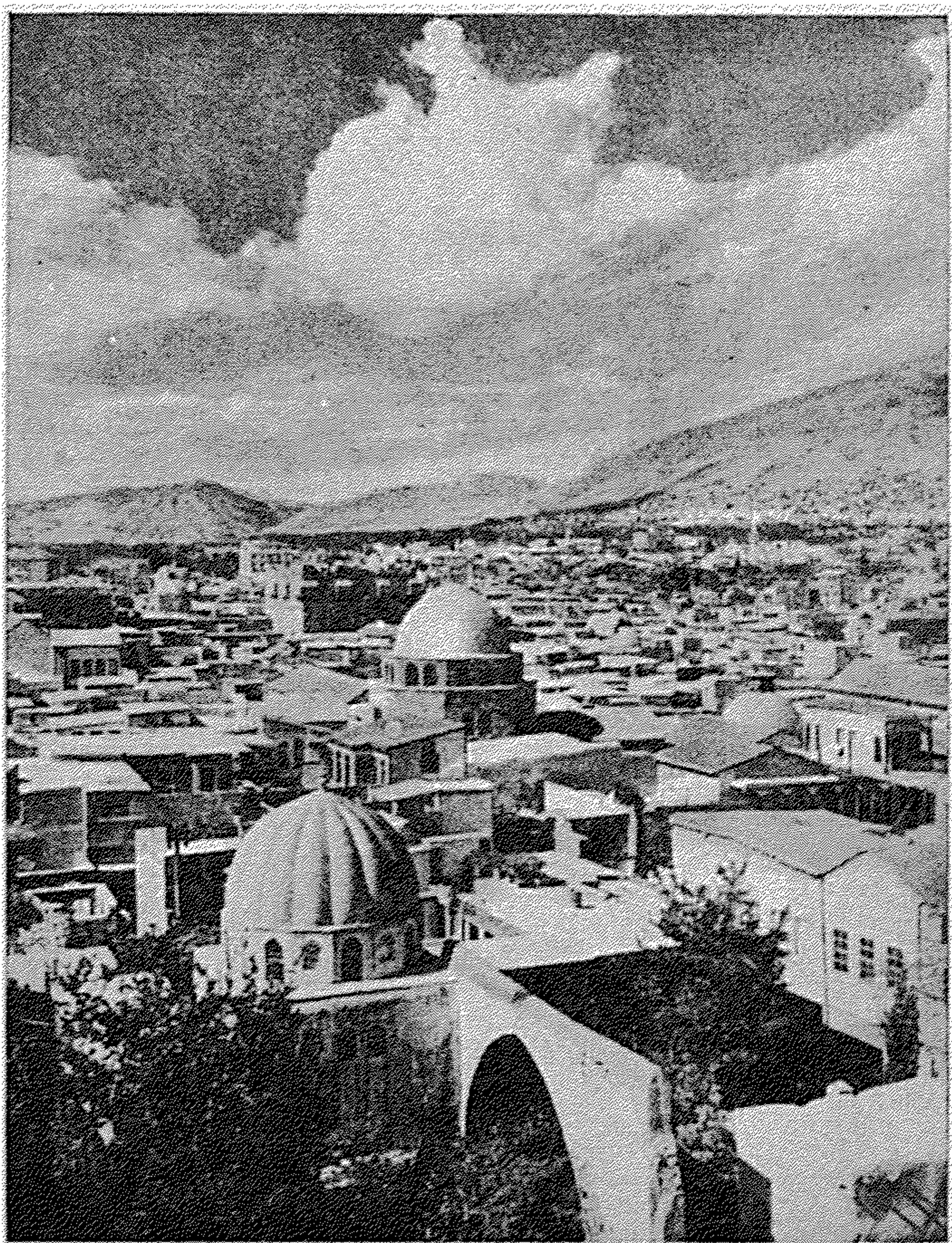
دمشق مدينة السحر والمعجزات

لولا دمشق لما كانت طليعة
ولا زمت بين العباس بن هان
(شوق)

١٦

اقرا

تصدرها مطبعة المعارف ومكتبتها بصر
بمعاونة الدكتور طه حسين بك وأنطون الجميل بك
وعباس محمود العقاد وفؤاد صروف



منظر عام لدمشق

دمشق وطبيعتها

دمشق بكسر الدال وفتح الميم وإسكان الشين اسم هذه المدينة الجميلة مدينة السحر والشعر . قالوا إن أصلها لفظة آرامية مماتة (مشق) تتقدمها دال النسبة . وقد وردت في اللغة الهيروغليفية على هذا النحو تقريباً ومعناها الأرض المزهرة أو الحديقة الغناء . وأطلق الآراميون عليها اسم (درمسق) والسريان (درمسوق) وأهل لغة التلمود (درمسقين) . وقالوا إن إرم ذات العماد التي وردت في القرآن الكريم هي دمشق بعينها و بعض المفسرين يذهبون إلى ذلك . والآية الكريمة (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يَخْلُقْ مِثْلَهَا فِي الْبِلَادِ) قال شبيب بن يزيد بن النعمان بن بشير :

لولا التي علقتني من علائقها لم تمس لي إرم داراً ولا وطناً

قالوا أراد دمشق ، وإياها عنى البحترى بقوله :

إليك رحلنا العيس من أرض بابل يجوزُ بها سمت الدُّبور ويهتدى

فكم جزعت من وهدة بعد وهدة وكم قطعت من فدقد بعد فدقد
 طلبتك من أم العراق نوازعاً بنا وقصور الشام منك بمرصد
 إلى إرم ذات العماد وإنها لموضع قصدي موجفاً وتعمدي

ومعنى آرام العالية أو سهل مرتفع نحو ألفي قدم عن مساواة
 البحر . وقد وردت في التوراة عدة أسماء مضافة إلى آرام .

وأطلقوا اسم (جِلْق) بكسر أوله وثانيه وتشديده على مدينة
 دمشق . وقد ورد هذا الاسم في الشعر القديم ومنه في شعر حسان :

لله درُّ عصابة نادمهم يوماً بجلق في الزمان الأول

وقيل جلق اسم لكورة غوطة دمشق كلها وقيل غير ذلك .
 ويكاد يكون الإجماع على أن جلق هي دمشق ، وسموا دمشق
 جلق الخضراء والغوطة وذات العماد ، ولقبت بالفيحاء — والفيحاء
 الواسعة من الدور والرياض — وسموها بعضهم بجيرون وسموها
 آخرون بالعدراء .

تعلو دمشق ٢٢٠٠ قدم أو نحو ٦٩١ متراً عن سطح
 البحر المتوسط وتبعد عنه نحو ٦٠ ميلاً . قامت في نجد من
 الأرض . ومعدل ما تجود به سماؤها من المطر كل سنة نحو

٣٥٠ مليمترأ . وهي تقع في عرض ٣٦/١٨ درجة من الطول و ٤٣/٢٠ من العرض . يطل عليها من الشمال جبل قاسيون وهو فرع من فروع جبل سنير الذي يطلق على بعضه اليوم اسم جبل قلمون ، ويشرف عليها من الجنوب الجبل الأسود وجبل المانع ومن الغرب جبل الشيخ المعروف بحرمون في التوراة وبجبل الشيخ عند قدماء العرب . وغربها مفتوح وكذلك شرقها ، فهي سهلية جبلية ، ومعتدلة الهواء تأخذ الفصول الأربعة فيها حكمها ، وقد نزل درجة الحرارة في الشتاء إلى اثنتي عشرة درجة تحت الصفر ودرجاتها في أيام الصيف إلى نحو ٣٧ درجة . وهي هبة (بردي) التي سماها اليونان نهر الذهب ، كما أن مصر هبة النيل ، وبردي يستل المدينة بعد تقسيمه ستة أنهار منها ما يدخل البلد وهي برقي (النهر الأصلي) وقنوات وبانياس ويزيد وتورا ، واللذان يسقيان الضاحية فقط الداراني وقناة المزة .

وكانت دمشق لقربها من جزيرة العرب والعراق والجزيرة ومصر مدينة تجارية تصل بين الشرق والغرب . وظلت عامرة على اختلاف العصور نحو أربعة آلاف سنة . فهي أقدم مدينة في العالم باقية على عمرانها . ومما تفخر به أن لها الوادين وادي

بردى ووادى العجم ، يشق الأول نهر بردى مضافة إليه مياه عين الفيحة ، ويشق الثانى نهر الأعوج المعروف عند القدماء باسم فرفر ، ومخرجه من سفوح جبل الثلج ، ولا يدخل المدينة بل يسقى بعض قراها القريبة .

ومن خصائص دمشق أنها وسط غوطتها الغناء تخرج لها بقولها وفا كهتها وأخشابها وأحطابها ، وهى على مقربة من إقليم حوران تجلب منه حبوبها الجيدة ، وعلى أميال يسيرة من إقليم الجولان ترعى فيه ماشيتها ، وعلى فراسخ قليلة من مصايفها ومشاتها . ترى فى بعضها الهواء العليل البليل طوال السنة ، وفى الوقت عينه تشهد حكم الصيف . فغورها على مقربة من نجدها وجبالها كسهولها تتعاون على جلب الخيرات إليها ؛ والثلج لا تخلو منه أعالي جبالها صيفاً وشتاء ، وماء الشفة يجلب إليها فى أنابيب تسقى دورها ومصانعها ، ونادر فى المدن الكبرى مدينة كهذه تسقى ماء طاهراً لذيذاً كما عين الفيحة ، وبهذا قلت الأمراض الوافدة على ما كانت فى الأعصار الخالية .

تاريخ دمشق السياسى

تاريخ دمشق القديم

استولى الآشوريون والبابليون والفرس والأرمن واليونان والرومان على هذه المدينة . ومنهم من كانت تطول أيامهم فيها كالرومان ، حكموها سبعمائة سنة ، واليونان حكموها ٢٦٩ سنة . ومنهم من كانت لهم منزل قلعة كالأرمن ، استولوا عليها ثمانى عشرة سنة . وكان الدمشقيون هم الذين استدعوا صاحب إرمينية لما سثموا تنازع الرومان والفراعنة عليها . والغالب أن الفراعنة لم يستولوا على دمشق واكتفوا بالاستيلاء على ساحلها غير مرة . وقعت في أيدي أسكندر المقدوني ثم في أيدي خلفائه السلوقيين ، وفي أيامهم كانت دمشق هيلينية يونانية كما كانت في عصور كثيرة مصرية أرمية . وكان شأن دمشق في النكبات شأن العواصم الكبرى إذا اضطرب حبل الأمن في البلاد المجاورة لها ، ولا سيما في البوادي والأقاليم ، أو تنافس الرؤساء ، وكان أكثرهم أشبه بعصابات لصوص - تصاب بأذى كبير فتقف تجارتها وتضعف زراعتها ، ويجمع فقيرها بل يزيد فقراؤها ،

لأن كل بائقة تنال الأقاليم المجاورة تحفز المنكوبين من أهلها على الاعتصام بدمشق . وما عرفت هذه المدينة طعم السعادة في أكثر أيام الرومان ، وشقيت بهم في آخر عهدهم خاصة ، فكانت رومية لا تمدُّ أهلها وطنيين رومانيين بل غرباء ورعايا ، وكثيراً ما كان الدمشقيون يبيعون أولادهم ليؤدوا ما تتقاضاه رومية من الجزية .

دمشق قبل الفتح العربي

سقطت دمشق في أيدي دولة النبطيين العرب في سنة ٨٥ قبل الميلاد ، فتحها الحارث النبطي فكانت نبطية من سنة ٣٧ إلى سنة ٥٤ للمسيح . وظهر النفوذ العربي في دمشق في عهد مبكر جداً ، وهل النبط إلا عرب بأصولهم ؟ وإذ كانت هذه المدينة تحت سلطان أهل الوبر لم يجعل منها الرومان عاصمة ولايتهم ، بل جعلوا مدينة حمص قصبتهم . ولم تخضع دمشق خضوعاً تاماً لأمراء العرب الحاكمين في أرجائها ، حتى ولا للفسانيين الذين كانوا عمالا للروم يرابطون في الجنوب والشمال والشرق فتتق دمشق بهم عادية الأعراب .

ولنا بذلك أن نقول إن اللغة العربية انتشرت في دمشق وأرجائها قبل الفتح الإسلامى بزمان طويل وسبق إلى نشرها الوثنيون من العرب ثم متصرة العرب . و إلى هؤلاء يرجع الفضل في انتشارها . والفتح العربى مدين للمتصرة العرب لانضمامهم إلى بنى قومهم وكانوا مع الروم يوم الفتح ، فغلبت عليهم النُصرة الجنسية أكثر من النُصرة الدينية لما شاهدوا أعلام الدولة العربية الجديدة .

دمشق فى الاسلام

تولى فتح دمشق كل من أبى عبيدة بن الجراح و خالد بن الوليد و يزيد بن أبى سفيان من كبار الصحابة ، حاصروها بعد وقعة اليرموك أعظم وقائع العرب فى الشام ، من الشرق والغرب ، ففتح نصفها عنوة والنصف الآخر صلحاً ، فأجراها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب صلحاً كلها ، وذلك سنة ١٤ من الهجرة ، ٦٣٦ م وقبل فتحها فتح خالد بن الوليد غوطتها — أى ضاحيتها — لما جاء من العراق مدداً لأهل الشام ، وركز العقاب راية الرسول فى أعلى الثنية ثنية العقاب التى يقال لها اليوم الثنايا ،

وهو الجبل الهرمى المشرف على شمال دمشق ، وقاتل بنى غسان يوم فصحهم فغلبهم على أمرهم .

وما كان الفاتحون بغرباء عن دمشق لصلاتهم التجارية بأهلها فى الجاهلية وامتزاجهم بساداتها من الروم . وكان أبو سفيان ابن حرب شيخ بنى أمية كثيراً ما يرحل إليها ، وقد زارها فى الجاهلية بعض قواد العرب وخلفائهم ، فعرفوا مداخلها ومخارجها وصادفوا من أهلها بعد الفتح مصادفة ، فعاملوهم معاملة ليس أحسن منها ، ولما لحق الروم بعد سقوط دمشق بقومهم فى آسيا الصغرى ، وخلت بهزيمتهم بيوتهم أسكن المسلمون فيها بعض رجالهم وجعلوا فى أسفلها المسلمين وخصوا أعاليها بأبناء الذمة حتى لا يتأذوا بالمسلمين إذا نزلوا العلالى .

ولما هلك أمير دمشق يزيد بن أبي سفيان وسّدت الإمارة إلى شقيقه معاوية ، فتولاها عشرين سنة أميراً وعشرين سنة خليفة . وسّدت إليه الخلافة بعد وفاة أمير المؤمنين على بن أبى طالب فوضع أساس ملك بنى أمية ، وكان على غاية التسامح . عهد بوزارة ماليته إلى سرجون بن منصور من نصارى دمشق ثم إلى ابنه من بعده ، وكان بعض أطبائه من النصارى . وكان فى

جيشه الأنباط والجراجمة والعجم وغيرهم من العناصر غير العربية وغير المسلمة . ثم تولى الخلافة ابنه يزيد بن معاوية ثم معاوية الصغير أياماً قليلة ، ثم مروان بن الحكم ثم ابنه عبد الملك ، وتولى الخلافة الأموية في دمشق أربعة من أبناء عبد الملك فدعى لذلك بأبي الأملاك ومفتاح الخير ، وهم سليمان بن عبد الملك والوليد ابن عبد الملك وهشام بن عبد الملك ويزيد بن عبد الملك ، وتولاها منهم عمر بن عبد العزيز حفيد عمر بن الخطاب لأمه ، وضرب المثل بعده وحسن سياسته . وكان آخرهم مروان بن محمد وهو من خيرة خلفائهم ، ولكن قضت الأقدار أن تسقط على يده الخلافة . قال جستاف لوبون : « أبان العرب عن تسامح مع كل مدن الشام ، فرضى أهلها بسلطانهم ، وطرحوا النصرانية وقبلوا دين الفاتحين وتعلموا لسانهم » . وأصاب دمشق من عناية بني أمية ما أصبحت به عاصمة أعظم دولة ، وبهيمتهم وعبقريتهم امتد عمرانها ، وذاق سكانها طعم العدل ، وعرفوا الغنى والسؤدد وكانت دمشق بهم أعظم عواصم العالم وأجملها .

مدحهم شاعرهم الأخطل النصراني بقوله :

حُشِدَ عَلَى الْحَقِّ عُيَافُ الْخَنَاءِ أَنْفُ إِذَا أَلَمَّتْ بِهِمْ مَكْرُوهَةٌ صَبَرُوا

شُمسُ العداوة حتى يُستقَادَ لهم وأَعْظَمُ الناسَ أَحْلاماً إذا قَدَرُوا
وكانت دمشق في أيام الأمويين كرومية في نظر أهل
النصرانية . وما كانت قبلهم تعد في العواصم الكبرى .
وللأمويين ابتكارات في الإدارة والسياسة لم ينسجوا فيها على
منوال غيرهم . ولهم على العرب فضل لا ينسى على وجه الدهر ،
وهو أن أبا سفيان والد معاوية وجدّه حرباً نقلاً من الحيرة
الخط إلى جزيرة العرب .

دمشق في عهد العباسيين

فتح عبد الله بن علي عم الخليفة العباسي السفاح مدينة
دمشق سنة ١٣٢ هـ ووضع السيف في أهلها ، واستصفي أموالها ،
ودخلت أباعر جيشه جامع بني أمية وظلت فيه سبعين يوماً ،
وقتل من النصارى واليهود خالق كما قتل كثير من العلماء
والأمراء . ونبشوا قبور بني أمية وأحرقوا جثثهم بالنار وذروها
في الهواء ، ونقضوا أسوار البلدة حجراً حجراً . انتقم العباسيون
من الأمويين أحيائهم وأمواتهم انتقاماً فظيماً ، وصفت لهم
دمشق إلا أنهم لم يجعلوا فيها دار خلاقتهم ، وصيروها قصبة

ولاية ، فذهب ما كان لها من عظمة على العهد الأموي .
 ومع هذا كان عظماء رجال بني العباس أمثال إبراهيم بن المهدي
 وعبد الله بن طاهر يتولون أمرها . ومن أعظم من عطف عليها
 من خلفائهم الرشيد ، وكان أميراً عليها قبل أن يلي الخلافة ،
 وكذلك ابنه المأمون ، كانا يختلفان إليها ويعدلان في أهلها ،
 حتى لقد ذكراهم بما كانوا يلقون من عدل بني أمية أيام سلطانهم
 وما خلت البلاد حتى في أيام عظماء العباسيين من دعاة
 يدعون إلى إرجاع الملك للأمويين ، فوضعوا لذلك ملحمة بنوها
 على معرفة المستقبل ، زعموا أنه يظهر رجل من بني أمية اسمه
 السفيناني ، فاعتقد الناس بظهوره ، كما اعتقد أهل المغرب بالمهدي ،
 وفي خلافة الأمين — والعباسيون يشتغلون بأنفسهم — ظهر هذا
 السفيناني ، واسمه علي بن عبد الله بن خالد بن يزيد بن معاوية ،
 وهو الملقب بالعميطر ، وكان من أهل العلم والرواية فدعا إلى نفسه .
 وكان أصحابه يوم ادعى الخلافة يدورون في أسواق دمشق ،
 ويقولون للناس : قوموا بايعوا مهدي الله . وكان يفتخر بقوله :
 (أنا ابن شيخى صفين) يعني علياً ومعاوية ، لأنه كان ينتسب لبني
 أمية من جهة أبيه ، ولآل أبي طالب من أمه ، وتعصب له اليمانية

وقاومه القيسية ، فنهب دورهم وأحرقها ، وقتلهم وفتك بأهل دمشق . وكان أصحابه يعمرون بالدار فيقولون : ريح قيسى نشم من هذه الدار ، فيضربونها بالنار ، فهرب القيسية من دمشق ، وكان من لم يبايعه سمر عليه بابه . ثم قام رجل آخر من الأمويين فنازع العميطر السلطة ، فلقيت دمشق بسبب هذه الفتنة شدة . وأعظم ما لقيت من تنازع قيس ويعن أو الزارية واليمانية ، وبقى الاختلاف في الشام بين هذين الحيين من العرب إلى العصر الأخير .

دمشق في عهد ملوك الطوائف

كان أول من اقتطع جزءاً عظيماً من جسم الخلافة العباسية أحمد بن طولون التركي . استولى على مصر نائباً عن أحد أمراء الأتراك في بغداد أولاً ، ثم صفت له أصالة واستولى على الشام ، وكان حكمه فيها وفي الثغور ضئيلاً ، وسدّه إلى بعض العمال الذين ارتضاهم . ولما هلك ابن طولون ، وكان أحسن سيرة من بعض المتأخرين من خلفاء العباسيين ، خلفه ابنه خُخارَوَيْه في الشام ومصر فأحسن هذا لأهل دمشق . ولما انقرضت دولة الطولونيين

سنة ٢٩٢ وقضى العباسيون على القرامطة الباطنية الذين جاءوا دمشق وأزعجوا أهلها وأخذوا منهم جزية عظيمة وأموالاً كثيرة حتى يكفوا عن تخريب بلادهم — ظهرت الدولة الإخشيدية دولة محمد بن طنج ، فصادر الإخشيد أغنياء دمشق ، واستصفي أموالهم .

وقد وجد بدار الإخشيد في مصر رقعة مكتوب عليها (قدرتم فأسأتم ، وملكتم فبخلتم ، ووسع عليكم فضيقتم ، وأدرت عليكم الأرزاق فقطعتم أرزاق العباد ، واغترتم بصفو أيامكم ، ولم تفكروا في عواقبكم ، واشتغلتم بالشهوات واغتنام اللذات ، وتهاوتم بسهام الأسحار وهن صائبات ، ولا سيما إن خرجت من قلوب قرحتموها ، وأكباد أجمتموها ، وأجساد أعريتموها ، ولو تأملتم في هذا حق التأمل لانتبهتم . أوما علمتم أن الدنيا لو بقيت للعاقل ما وصل إليها الجاهل ؟ ولو دامت لمن مضى ما نالها من بقاء ، فكيف بصحبة ملك يكون في زوال ملكه فرج العالم ، ومن المحال أن يموت المنتظرون كلهم حتى لا يبقى منهم أحد ويبقى المنتظر به . افعلوا ما شئتم فإننا صابرون ، وجوروا فإننا بالله مستجيرون ، وثقوا بقدرتكم وسلطانكم

فإننا بالله واثقون ، وهو حسبنا ونعم الوكيل) .
قالوا إن الإخشيد بقى بعد هذه الرقعة فى هواجس وسافر إلى
دمشق فمات فيها سنة ٣٣٤ . وفى السنة التى قبلها كان سيف
الدولة بن حمدان استولى على حلب ودخل دمشق ودهش
بغوطتها فصرح بأنه سيستولى عليها جملة ، فكتب أهلها إلى
المتغلب على مصر كافور الإخشيدى فبعث جيشاً طرده عنها
وضمها إلى مصر ، فنجت دمشق من جشع سيف الدولة وتحكمه
فى أصحابها . وآذنت شمس الإخشيديين بالأفول سنة ٣٥٧ ولم تلق
دمشق من دولتهم ودولة الطولونيين سوى راحة نسبية ، ماخرجت
عن حد ما كانت تلقاه فى أدوار عظماء الخلفاء من بنى العباس .
وجاءت دولة الفاطميين أو العبّيديين فاستولت على هذه
المدينة سنة ٣٥٩ وخطب على منبرها للمعز الفاطمى الشيعى ،
وانقطعت خطبة بنى العباس السنيين ، وعادت دمشق تشهد حظها
يسود ، والفتن فيها تتكاثر وتشتد . وكان من سياسة الفاطميين
الأّ يولوا الولاية مدة طويلة ، وبذلك كان سوء الإدارة ماثلاً فى
أيامهم ، ومن ضعفهم أن يتولى أمر دمشق رجل كان ينقل التراب
على الحمير اسمه قسام الحارثى من تلفيتا فى جبل قلمون ، ولا تقدر

الدولة على نزع السلطة منه ، وكانت أرسلت لحربه الأمير الأفضل فحاصر دمشق وضاق بأهلها الحال ، ثم رضى القائد عن قسام وأعاد إليه حكم البلد .

واستولى الأحداث على دمشق فأرسل الفاطميون أحد قوادهم جيش بن الصمصامة فتلقاه أهلها خاضعين فأمنهم واستخص رؤساءهم ، واستحجب جماعة منهم ، وكان يبسط الطعام كل يوم لهم ولمن يحبىء معهم من أصحابهم ، وأمرهم ذات يوم إذا فرغوا من الطعام أن يحضروا إلى حجرة يغسلون أيديهم فيها ، وأوعز إلى أصحابه إذا دخل رؤساء الأحداث الحجرة أن يغلقوا بابها ويضعوا السيف فيمن دخلها ، فقتل من أصحابهم بهذه المكيدة نحو ثلاثة آلاف رجل ، ثم قبض على الأشراف واستأصل أموالهم ، وأتى على نعمهم ووظف على البلد خمسمائة ألف دينار .

وبعد سنين قليلة ثار بدمشق رجل من أهلها يعرف بالجزار ، فاجتمع إليه جمع كثير من أحداثها ، فقبضوا عليه وقتلوه ، وأظهروا الطاعة للفاطمين ، وذلك بعد أن اجتمع على الناس بدمشق الجوع والحريق والنهب والقتل . وفى سنة ٤٦١ وقع الخلف بين الدمشقيين والعسكرية فطرحت النار فى جانب من

المدينة فاحترقت ، واتصلت بالجامع الأموي ، وكانت دمشق في هذه الحقبة قد خربها أعراب البادية وأهل العيث والعيّارون وانتقل أهلها إلى حمص . وهذا القرن من أشأم القرون على دمشق ، فقد أصيبت في سنة ٤٦٧ بكارثة لم يسجل تاريخها أعظم منها ، وذلك بانتشار الطاعون أولاً ثم عمت المجاعة البلاد من قابل ، فلم يبق من أهل دمشق سوى ثلاثة آلاف إنسان بعد أن كانوا خمسمائة ألف كما قال المؤرخون ، أفنهم الغلاء والجلاء والوباء . وكان بها مائتان وأربعون خبازاً فصار بها خبازان ، وختت الأسواق وأقفرت القصور والدور ، ونفق البوم في البراري ، والدار التي كانت تساوي ثلاثة آلاف دينار ينادى عليها عشرة دنانير فلا يشتريها أحد ، والدكان الذي كان يساوي ألف دينار ما يشتري بدینار ، وأكلت الكلاب والسنانير والميتات ، وأكل الناس لحم الآدميين . وهذا هو الطاعون الأسود الذي عم العالم وأصاب مصر ما أصاب الشام من فجائعه .

دمشق في عهد السلجوقيين

ساعت سيرة المعلى بن حيدرة أمير الفاطميين مع الجند والرعية في دمشق ، فثار به العسكر وأعانهم العامة ، فخربت في الفتنة

دمشق وأعمالها ، وجلا عنها أهلها ، وهان عليهم مفارقة أماكنهم وبيوتهم بما عانوه من ظلمه . قال المؤرخون : وخلت الأماكن من قاطنيها ، والغوطة من فلاحها ، وغلت الأسعار حتى أكل الناس بعضهم بعضاً لانعدام الأقوات ، فجاء أئسر من أمراء السلجوقيين واستولى على المدينة بالأمان ، وأعاد إليها الخطبة العباسية سنة ٤٦٨ ، وانقضت أيام الفاطميين فيها . إلا أن أئسر لم يكن بالدمشقيين أرحم من المعلى . يُضاف إلى المصيبة بالسلف والخلف أن رجاء الفاطميين لم ينقطع من استرجاع دمشق ، فحاصروها غير مرة ورجعوا عنها خائبين ، حتى قبض لها رجل عظيم من ممالك السلجوقيين اسمه طفتكين

تولى طفتكين دمشق فأحسن السيرة واستمر في حكمها من سنة ٤٩٧ إلى سنة ٥٢٢ فأحببه الدمشقيون كثيراً لبعده عن الظلم ، وإعادته إلى الناس أملاكهم التي اغتصبها منهم ولالة الجور ، وإحيائه الأراضي المعطلة ، فباع منها ما كان شاغراً ، وصرف ما حصل من ثمنها في الأجناد المرتبين للجهاد ، فعمرت عدة ضياع ، وأجريت عيون ، وحسنت بآياله دمشق وأعمالها ، وانبسطت الرعية في عمارة الأملاك في باطن العاصمة وظاهرها ،

ولما مات اشتد حزنها عليه ، ولم تبق محلة ولا سوق إلا والمآتم قائمة فيه عليه . وبحسن سياسته أوقف توغل الصليبيين في أحشاء البلاد ، وقصر حكمهم على الساحل ، وعقد بين المتخالفين من أمراء المسلمين في الديار الشامية صلوات الود ، ومعااهدات عدم الاعتداء ، وألف بين قلوبهم ليجتمعوا كلهم على حرب الصليبيين الذين كانوا وصلوا إلى الأراضى الشامية سنة ٤٩٠ هـ واستولوا على أنطاكية وعلى الساحل الشامى وبيت المقدس .

وعَدُّوا من غلطات طغتكين أن سَلَّمَ الباطنية الاسماعيلية قلعة بانياس ليدسلطهم على الأفرنج ، ويحول دون اعتداء هؤلاء على المسلمين ، فقوى بهذه القلعة أمرهم ، وخفَّ بهرام داعيتهم من العراق ، ودعا إلى مذهبه جهرة ، فتبعه خلق من العوام والجهال والفلاحين ، ووافقهم الوزير المزدقانى وزير دمشق فعظم أمر بهرام بالشام ، وملاك عدة حصون ، وكاتب الأفرنج ليسلم إليهم دمشق ، وجعلوا موعدهم يوم الجمعة ليقتلوا المسلمين وهم في صلاتهم ، فعلم صاحب دمشق بالأمر فقتل الوزير المزدقانى وأمر الناس فثاروا بالاسماعيلية فقتل منهم بدمشق بضعة آلاف ، ولم يتعرضوا لحرَمهم وأموالهم ، ووصل الأفرنج في الميعاد فلم يظفروا بشيء ،

فتبعهم المسلمون يضربون رقابهم فما نجا من جيشهم إلا القليل .
ولولا قيام طغتكين ذاك القيام الحمود لاستولى الصليبيون
على دمشق وحلب ، وكثيراً ما كانوا يغزون ربضهما ، ولم تؤد
دمشق للصليبيين غرامة على عهده ، وظهرت بمظهر دولة قوية ،
وكان طغتكين كان مبشراً بالدولتين النورية والصلاحية اللتين
جعلتا من دمشق عاصمتها ، وكان لهما شأن وأى شأن في دفع
عادية الصليبيين عن الأرض المقدسة ، والقضاء على ذاك
التذبذب الذي ظهر من الدولة الفاطمية ، وكان بعض رجالها
كاتب أهل الحملة الصليبية . وطغتكين هو الذي ضرب على أيدي
صفار الأمراء في الشام ممن كان يهون على بعضهم الوقوع في
سلطان الصليبيين على أن تبقى لهم اماراتهم الموهومة الضئيلة .

دمشق على عهد الدولتين النورية والصلاحية

لم تر دمشق عزاً بعد دولة الأمويين مثل العز الذي نالته على
عهد الدولتين النورية والصلاحية . كان نور الدين محمود بن زنكي
تركياً وخلفه صلاح الدين يوسف بن أيوب وهو كردى . وكلاهما
خدم العرب والاسلام خدمة جليلة لا ينساها التاريخ . وفي

دولتيهما عمرت دمشق عمرانا عظيماً على اشتغال السلطانين برد الصليبيين عن الديار الشامية . وقوت هذه الكارثة العظيمة من متن الأمة ، فانتظم شملها بالنظام المحكم ، ووجهت وجهتها إلى هدفها الأسمى ، وهو القضاء على الصليبيين . وكانت الأمة إذ ذاك على غاية الحماسة الدينية ، حتى إن والدة شمس الملوك وافقت أرباب الدولة على قتل ابنها لما استصرخ الأفرنج لتسليمهم البلاد . وكان جده طغتكين المثال الكامل في دفعهم عنها . وقد وصلوا مرة إلى المرج الأخضر من ضواحي دمشق بقيادة كونراد الألمانى ولويس السابع الفرنسى وبودوين الثالث ملك القدس في جيش عظيم فهزمهم المسلمون شر هزيمة ودفعوهم إلى الساحل .

أبطل نور الدين في دمشق المظالم والمغارم ، ورفع الحيف عن الضعاف ووجه القوة إلى مقصد واحد ، وفتح بعض البلاد التى كان أمراؤها ضعافاً في وطنيتهم . ولما استعان شاور وزير العاضد الفاطمى بالصليبيين على قتال جيش نور الدين بعث العاضد يستنجد بنور الدين ، فجهز له حملة بقيادة أسد الدين شيركوه وقصد مصر سنة ٥٦٢ ومعه ابن أخيه صلاح الدين يوسف ، فاستنجد شاور بالأفرنج فساروا في أثر شيركوه إلى الصعيد فهزمهم ،

ثم ظهر التبليبل فى السياسة الفاطمية وتولى صلاح الدين القيادة فقضى على دولتهم آخر الدهر ، وصفت مصر والشام والجزيرة لنور الدين .

وكانت سيرة نور الدين كسيرة صحابة الرسول من التقشف والعفة عن أموال الرعية . أسقط كل مايدخل فى شبهة الحرام ، وما أبقي من الجبايات سوى الخراج والجزية وما يحصل من قسمة الغلات ، وكتب أكثر من ألف منشور بذلك ، وأطلق المظالم وأسقط من دواوينه الضرائب والمكوس عن المسافرين ، وسامح الرعايا بمئات الألوف من الدنانير . وكان يأخذ مال القداء ويعمر به الجوامع والمارستانات ، وأخذ من أحد ملوك الافرنج وكان فى أسره ثلاثمائة ألف دينار ، وشرط عليه ألا يغير على بلاد الإسلام سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام ، وأخذ منه رهائن على ذلك ، وبنى بالمال المستشفى النورى بدمشق ، ولما بلغ الملك الافرنجى مأمنه هلك . ووقف نور الدين الأوقاف العظيمة على جوامع دمشق ، وكان يبيع ما يصل إليه من الهدايا ، وينفقه فى عمارة المساجد المهجورة ، وعمر المدارس والطرق والجسور ودور المرضى والبائسين والخانات والأبراج والرباطات ، وبنى المكاتب

وأجرى عليها وعلى المعلمين فيها الجرايات الوافرة إلى غير ذلك .
أما خلفه صلاح الدين فقد كان مثله في حسن السيرة ، وبعد
الهمة ، وجميل المفاداة ، وكان له عطف خاص على الدمشقيين .
سامحهم بمئات الألوف من الدنانير على نحو ما فعل معلمه نور الدين
وزين مدينتهم هو وآله وعتقاؤه وجواريه بالمدارس والرباطات
والمساجد ولم ينسب إليه شيء منها . وكان يحب دمشق ويؤثر
الإقامة فيها ، ولما بنى له أحد عماله قصراً لأمه ولم يرض أن ينزله
لأنه ما كان يفكر في غير حرب الصليبيين ، ومات صلاح الدين
بعد هذه الفتوح العظيمة ومنها مصر ، ولم يخلف سوى جرم
واحد من الذهب وسبعة وأربعين درهماً ، ولم يترك ملكاً ولا داراً
ولا عقاراً ولا بستاناً ولا قرية ولا شيئاً من أنواع الأملاك ،
وكان يهب الأقاليم ويعطى في وقت الضيق كما يعطى في حال
السعة ، ويفتح بابه للمتحاضرين حتى يصل إليه كل أحد ،
ويجلس إليهم مجلساً عاماً يحضره الفقهاء والقضاة والعلماء ،
يفعل ذلك سراً وحضراً . قال سبط ابن الجوزي : ويقال
إن صلاح الدين فتح ستين حصناً وزاد على نور الدين مصر
والحجاز والمغرب واليمن والقدس والساحل وبلاد الأفرنج

وديار بكر ، ولو عاش لفتح الدنيا شرقاً وغرباً .
وما كان أولاد صلاح الدين وحفدته ، مع وقوع الخلف
بينهم ، بغافلين عن زحزحة الصليبيين من مصر والشام ، ويولون
دمشق عطفاً عظيماً ويقيمون فيها المصانع والمرافق مقتفين أثر
مؤسس دولتهم الأعظم ، وعلى خطته جروا فى الرحمة وحب الخير ،
وكان الملك العادل أبو بكر بن أيوب عظيماً بأخلاقه سار بسيرة
أخيه صلاح الدين وكان مستشاره وأمينه . ولولا هذا الاختلاف
الناجم بين الأسرة الأيوبية للنزاع على الملك لكانت دولتهم
خير دولة قامت . ذلك لأن أصحابها كانوا عارفين بصناعة الملك ،
يحسنون حمل الناس على الجهاد ، لإنقاذ بلادهم من العدو ،
وكان صفارهم وكبارهم على غاية التهذيب مثقفين بأدب الدين
والدنيا ، ولقد توصل الملك العادل بدهائه إلى أن كان يرشى نساء
قواد الصليبيين بالجواهر والحلى الدمشقية فيخدمنه مقابل ذلك
خدمات مهمة ويتجسسن له على قومهن . وكثيراً ما كان أمراء
المسلمين يعمدون إلى مثل هذه الوسائط ، وقد قدم أحد أمراء
دمشق ذات يوم مائتين وخمسين ألف دينار لأحد أمراء الصليبيين
فلما فحصها وجدها زيوفاً ، ولكن كان السهم نفذ ، وحصل الأمير

المسلم على ما أهمه الوصول إليه من الصليبي ، والحرب خدعة .
أوعز الملك العادل إلى الواعظ سبط ابن الجوزي مرة أن
يحث الناس على الجهاد ، لما شاهد من فتور في العزائم والقعود
عن الحرب ، فأشار الواعظ أن يقص النساء شعورهن لتستعمل
في الأدوات اللازمة للحرب ، ويعمل منها شكال وكرفسات .
وصعد منبر جامع دمشق الأعظم وأمر باحضار الشعور فحملت
على الأعناق ، وكانت ثلاثمائة شكال ، فلما رآها الناس ضجوا
وشهقوا بالبكاء ، وتعاهدوا على أن يقصوا من شعور نسائهم مثلها ،
ثم سافروا للقاء العدو وما كفوا حتى وقع الصلح بين العادل
والأعداء . وبهذا أثبت نساء دمشق في القرن السادس ما انطوت
عليه أنفسهن من الوطنية ، وأنهن لسن دون نساء بني أمية في
القرن الأول يوم أتين مع جيش العرب لفتح دمشق ، وكن
يقاتلن في صفوف الرجال ويتولين منهم ما تتولاه نساء أهل
المدنيات الحديثة في الحروب من طهي الطعام وغسل الثياب
وتضميد الجراحات وتمريض المرضى .

دمشق على عهد المماليك

اشتد الخلاف بين أبناء العادل اشتداده من قبل بين أبناء أخيه صلاح الدين . وأهم ما كان من الأحداث أيام هذا الضعف مجيء الخوارزمية من الشرق يريدون الإستيلاء على الشام ، فعاونهم بعض أمراء دمشق واشتد البلاء فيها ، وأحرقت عدة أحياء وقصور ومساجد وخانات ، ودام حصارها خمسة أشهر ، وهلك الخلق موتاً وجوعاً وقلّ الشيء وأكلوا الميتة وأبيعت الأملاك والأمتعة بالشيء اليسير ، وأنتن البلد بالموتى على الطرق . قال المؤرخون : وجرى بدمشق أمور شنيعة بشعة جداً لم يتم عليها مثلاً قط .

بويع الملك الظاهر بيبرس البندقدارى ملكاً على مصر والشام بعد أن قتل تورانشاه آخر الأيوبيين سنة ٦٤٧ ولقب الملك الظاهر ، وهو رأس دولة المماليك البحرية . وجاء جماعة هولاء إلى دمشق بعد تخريبهم بغداد والقضاء على الخلافة العباسية فيها سنة ٦٥٦ . وفي السنة التالية خرب هولاء حلب وأوقع بها خمسة أيام حتى لم يبق بها أحد ، وأنفذت دمشق مفاتيحها إلى هولاء كالتأمن شره ، ومع هذا خرب سورها وما نجت من غائلته

إلا بانهزام جيش التتر على عين جالوت شر هزيمة .
 و بعد حين وصل غازان من حفدة هولاكو دمشق فبذل له
 أهلها مالا عظيماً ، وباستيلائه عليها خربت الدور والمساكن
 بظاهر دمشق ، واستبيح ما لم يصبه الحريق من الأماكن ، وأسر
 ألوفاً وقتل مئات في التعذيب على المال ، ودام التتر أربعة أشهر
 على ذلك ، فخربت بعض المدارس الكبرى ودار السعادة مقر نواب
 السلطنة وما حولها . و بعد مدة فتح ببغاً أروس التترى دمشق
 ونهب ضياعها وقطع أشجارها وجرى على أهلها من عسكره ما لم
 يجر من عسكر غازان .

كان ملوك الممالك أجناساً ، منهم الكفاءة وبعضهم دون ما يجب
 من الكفاءة السياسية ، فاتسع المجال في عهد الضعاف للواغلين
 من الشرق ففسفوا أهل هذه المدينة . وما لقيت من جنكيز
 وهولاكو وغازان من المصائب زاد أضعافاً بضعف الدولة القائمة ،
 فلما وافاها تيمورلنك أنساها ما لقيت منه ما كان حل بها في
 القرنين الماضيين من أجداده التتر . فإنه ضرب عليها غرامة
 عظيمة كان مقدارها ألف ألف دينار ، ولما استوفاه دخلها
 أمراؤه فحل بأهلها البلاء تسعة عشر يوماً هلك من ساكنيها

خلال ذلك ألوف بالتعذيب والجوع ، وسبوا النساء وساقوا
الأطفال والرجال ، ثم طرحوا النار فى المنازل والقصور والجوامع
والمدارس ، فعم الحريق فى يوم عاصف جميع البلد ولم يبق غير جدران
جامعها ، وحرقت فى هذه الفتنة معظم خزائن الكتب التى كانت
زينة المدارس . وأكدر رجل من باقاريا اسمه جوهان شيلتبرجه
كان جندياً من الأرقاء فى جيش تيمور أن ثلاثين ألف إنسان
بينهم النساء والأطفال قد اختبأوا فى المسجد الجامع فهلكوا لما
سرت إليه النار . قال ابن تغرى بردى : ولقد ترك المصريون
دمشق أكلة لتيمور وكانت يوم ذاك أحسن مدن الدنيا وأعمرها
وكان يرجى بعد تلك الفتنة المشؤومة سنة ٨٠٣ أن تتنفس هذه
المدينة الصعداء ، بيد أن أمراءها ما كفوا عن مظالمهم ، وظلوا
يصادرون كل من يعتقدون أن لديه مالا . وانتشر فيها الطاعون
سنة ٨١٤ فأحصى من مات من سكانها خاصة فكانوا نحواً من
خمسین ألفاً وخلت عدة قرى من السكان وبقيت الزروع قائمة
لا تجد من يحصدها ، وأشبه هذا الوباء وباء سنة ٨٩٧ وكان
يموت فيه كل يوم ثلاثة آلاف إنسان . والأوبئة والمجاعات
والزلازل والقحط ليست أكثر بلاء على هذا البلد من جبابرة

الملوك والمفسدين من الفاتحين ، فان تيمورلنك مثلاً أخذ من دمشق جميع صناعاتها ومُفَنَّنِيهَا وعلمائها وقرائها ، ونهب آثارها النفيسة ثم أحرقها ، لم تأخذه بها وبأهلها شفقة .

وجاء ملوك عظام من المماليك البحرية والبرجية اهتموا لسعادة دمشق وفي مقدمتهم الظاهر بيبرس والمنصور قلاوون وبيبرس الجاشنكير وقايتباي وبرزباي ، وجاء أيضاً منهم صغار بعقولهم وبأعمارهم ، ومع هذا وفقت دولتهم إلى إخراج بقايا الصليبيين من ساحل دمشق فحف عنها الضغط الذي دام نحو مائتي سنة مشفوعاً بغارات التتر من الشرق

دمشق في عهد الدولة العثمانية

استولى السلطان سليم الأول العثماني على دمشق سنة ٩٢٢ بعد وقعة مرج دابق التي قتل فيها قانصوه الغوري آخر ملوك المماليك . وكان سليم جباراً سفاكاً للدماء ، قتل إخوته وبضعة من وزرائه . ومن سوء حظ هذه العاصمة أن أرباب الرحمة من ملوك آل عثمان مضوا قبل استيلاء العثمانيين الأتراك على الشام ومصر . ولئن كانت هذه الديار بمعزل عن شؤون الدولة السياسية في القسطنطينية

دار الملك وشأنها شأن سائر الولايات العثمانية ، فإن جهل الأتراك بالإدارة أذهب عن دمشق نضرتها التى كانت لها على عهد نور الدين وصلاح الدين مثلاً . وكان يتحكم فيها المتوثبون على الملك وأرباب الإقطاع ، والدولة لا تهتم إلا لجباية أموالها من الرعايا ، وقصاراها أن يخطب لها على المنابر ، وتضرب السكة باسم ملوكها ، وتراعى فيها الظواهر وتحس فى أهلها الخضوع لما تأمر به . ولم ينكر الدمشقيون على الأتراك القادمين سوى استرسال بعض رجالهم فى الشهوات ، ومجاهرتهم بالفسق وتعاطى الخمر ، وضرب حكومتهم رسوماً حتى على بيوت الدعارة . واستغربوا من الفاتح ورجال حملته أن يخلقوا لحاهم ، وما كانت عيون الناس فى بلاد العرب تألف غير اللحية تزين وجوه الرجال . أما الجيش العثمانى فكان دأبه الاعتداء على السكان ، ينزلون بيوتهم بالقوة ، ويعتدون على الأعراض ويقطعون الأشجار ويرعون الزرع ويوغلون فى المنكرات والسلب والنهب .

ولما رحل السلطان سليم بعد فتحه مصر خلا الجولنائبه جان بردى الغزالى فخرج عن الطاعة وبايعه الأهليون بالسلطنة مكرهين وسمى نفسه بالملك الأشرف ، وخطب له على المنابر ، وزينت

دمشق ثلاثة أيام ، وأوقدت للشموع على الدكاكين ، وضربت
السكة باسمه ، ثم أرسلت الدولة العثمانية جيشاً قضى عليه . وكان
هو من قبل قضى على حامية المدينة ، وكانوا خمسة آلاف جندي
من الانكشارية . وفي وقائعهم خرب نحو ثلث دمشق من ضياع
وأحياء وحارات وأسواق وبيوت ، وقتل من أهلها نحو سبعة
آلاف ، وهجم العسكر التركي على أحياء المدينة ور بضاها فكسروا
الأبواب والحواصل والدكاكين ، وأذوا النساء والأولاد ، وكان
النساء اجتمعن في مدرسة الحنابلة ومدرسة أبي عمر وغيرها من
مدارس الصالحية فهجموا عليهن وعروهن من ثيابهن ، وأخذوا
من راقهم من النساء والغلمان . ويمكن حصر مصائب الدور
العثماني الأول في ظلم الوالي إذا كان عاتياً مرتشياً ، وظلم الجند
في كل مكان نزله ، وشقاء البلاد بأرباب النفوذ من أهلها .
ومن الولاة من لم يكن حد لظلمهم ولا لسرقاتهم ، أمثال
سنان باشا ، كان يقتل ألوفاً من الأبرياء ويعمر المساجد !
فقد خلف من الذهب والجواهر والحلى والأحجار الكريمة
ما عز وجود مثله في غير خزائن كبار الملوك المستبدين . هذا
عدا ما أنفقه في بناء الجوامع والمدارس والتكايا والخانات مما قدره

مؤرخو الترك بملیونی ليرة ذهباً بسكة زماننا .

وكانت الدولة العثمانية تخشى ولايتها ، ولذلك ما كانت تبقيهم في دمشق إلا أشهراً معدودة حتى لقد بلغ من تولاها منهم في قرن واحد من سنة ١٠٠٠ إلى ١١٠٠ أحداً وثمانين والياً . وزاد في هذا الدور ظلم الانكشارية جيش الدولة وكثر أذاهم ، يعبثون بأعراض الرعية وعروضها ، ويستبيحون المدينة وقراها ، لا يكاد إنسان يأمن شرهم وعتوهم ، وزادت فظائعهم لما أنشئت فرق جديدة من الجند ، وبدأت المنافسة بين العسكر القديم والعسكر الجديد ، حتى أدت إلى أن يقتتلوا في الشوارع ، وإلى أن يتغلب أحد الفريقين المتقاتلين على القلعة ، يقتل الأبرياء وتخرب بيوت وحوانيت ، وتتعطل الأعمال أياماً ، وأقل ما كان ينال أهل القرى من الظلم متى طولبوا بعوارض سنتين أى بأموال عامين لحاجة الدولة أبداً إلى المال . فيرسل الوالى زبانيته من الجند يخربون المساكن ويقطعون الأشجار ، وعادة قطع الأشجار تأصلت في نفوس رجال الترك حتى أتوا في بعض الأقاليم على أشجارها كلها ، فأصبحت بتكرر قطعها وإحراقها جرداء مرداء بعد أن كانت غابات غناء . وكان الجند إذا شتوا بدمشق وهم ألوف يلزمون

أهل المدينة بأكلهم ومبيتهم ، فإذا عزموا على السفر يأخذون من كل دار ترحيلة أى مبلغاً من المال نفقة الطريق . وأصبح الأمر فى بعض الأدوار على غاية الأخلوقة ، فقد حدث أن خصص السلطان إبراهيم الخالع الماسجن جباية إيالة الشام كلها لامراته السابعة ، فكانت قرينة السلطان ترسل رجلاً يجيئها باسمها . وحدث بعض السنين أن أرسلت رجلاً اسمه محمد أغا ، وهو الذى نهض بعد مدة بالدولة باسم محمد باشا الكوپرلى الكبير . قال أبو الفاروق : ولا عجب فقد توجد الدرة النفيسة بين الكناسات والقمامات (راجع الجزء الثانى ص ٢٦٧ من كتاب « خطط الشام » من تأليفنا) .

وفى العهد العثمانى كانت الفتن بدمشق متصلة اتصال الشؤبوب ، والبلاذ ساحة وغى على الدوام ، وكذلك كانت الحال فى الأقاليم : تتعطل الأسواق والمعاملات بسبب الاضطرابات بين الإنكشارية جيش الدولة والفرق الجندية الأخرى كالالاتية والقبوقولى . وقد عطلت البلد سنة ١١٦١ هـ مرة ما يقرب من سنة ، لا تقام جمعة ، ولا يسمع أذان ، ولا يفتح جامع ، ولا يتمكن أحد من الخروج من منزله ،

وأغلقت دمشق دكاكينها مرة تسعة أشهر احتجاجاً على مسائل آذتها ، وكانت ذريعتها العظمى في إنكار ما يؤذيها إغلاق الحوانيت والمتاجر .

نعم انقلب عيش الدمشقيين في القرون الأخيرة من حكم العثمانيين عيشاً رتيباً ليس فيه غير المغارم والمظالم ، ونشوب الفتن فيها من الأمور الطبيعية ، وذلك لضعف الحكومة وقلة بصيرة ولاية الأمر وفسادهم ، وسرعة تبديل الولاة وسائر العمال ، والقاعدة أن المناصب الكبرى لا تدوم لمتوليها أكثر من بضعة أشهر ، ونادر من يتولاها سنة كاملة أو سنتين ، ومعظم العمال يبتاعون مناصبهم من رجال الآستانة بالمال الوافر ، والجند لأقل سبب يُشْعَثُونَ القرى ويأكلون مغلها ، ويقتلون في أهلها . ومعنى تخريب قرى دمشق انقطاع مادة حياتها . وكاد الموت والحياة يتساويان في نظر الناس على عهد الترك لأن كل ما يدخرونه ينهب ، وكل ما يعمرونه يخرب .

وجاء الوالى أحمد باشا الجزار يقتل في الأهلين ويعسفهم ، وكثيراً ما كان يصادر الناس ثم يقتلهم ، وطال حكمه في أوائل القرن الثانى عشر وهو يلقي الشغب بين الأهلين وينمى روح

الفتن بينهم ، حتى ينقذ القطر بزعمه من عسف المشايخ والامراء .
 وكان جوره بالقياس إلى جور هؤلاء أقل وطأة ، فحفظ المساواة
 بين الرعية ، وكان يحبس علماء المسلمين كما يحبس قسيسى
 النصارى وحاخامى اليهود وعُقّال الدروز . ويصادر المسلمين كما
 يصادر اليهود .

وأهم ما وقع فى القرن التالى قتل أعيان دمشق الوالى سليم باشا ،
 وكان قضى على جيش الإنكشارية فى الآستانة وهو صدر أعظم ،
 فحاول قتل بعض أعيانهم وهو والى فبدأوه بالشر قبل أن يبدأهم ،
 وجعلوا الحجة فى إثارة العامة أنه يريد وضع ضريبة جديدة على
 البيوت والخوانيت فهاج الرعاع لذلك وقتلوه . ولولا أن اتفق
 فى تلك السنة خروج محمد على باشا والى مصر على الدولة ،
 وإعداده حملة لفتح الشام ، لجعلت الدولة على دمشق سافلها
 لما أصابها من الذل بمقتل واليها .

وشغلت دمشق بفتح ابراهيم باشا بن محمد على باشا ونفس
 خناقها بالدولة الجديدة ، وقد رأى الدماشقة إدارتها أحسن من
 الإدارة التى عهدوها من العثمانيين ، وكان من أول أعمال
 المصريين ترتيب المجالس الملكية والعسكرية وإقامة مجلس

الشورى ، وترتيب المالية ووضع نظام للجباية ، ومعاملة الرعايا بالمساواة والعدل . ومع هذا استثقل أرباب النفوذ والمشايخ ظل هذه الدولة ، وودوا رجوع العثمانيين ، ليعيشوا معهم كالحلمة الطفيلية تمتص دماء الضعفاء وتفتك بالآمنين والأبرياء . أما إبراهيم باشا فمضى فى إصلاحه وأبطل المصادرات ، وقرر حق التملك ، ووطد الأمن وأحيا الزراعة والصناعة وهيا الطرق لرواج التجارة ، وبتشويقه عمت تربية دود الحرير ودود القز ، واستخرجت بعض المعادن ، فاستعادت بعض القرى عمرانها القديم ورخص الفاتح الجديد للأجانب فى إرسال معتمديهم إلى دمشق ، وكانوا قبله يمنعون من دخولها . ودام حكمه فى الشام تسع سنين ، ومن دمشق خرج عائداً إلى مصر فبكاه الدمشقيون بكاء شديداً ، على شدته فى تطبيق القوانين ، وما عهد منهم أن ودعوا فاتحاً بما ودعوا به إبراهيم بن محمد على الكبير .

مدح قنصل بريطانيا العظمى الإدارة المصرية فى الشام بقوله :
 (ولو طال الحكم المصرى لاستعادت الشام قسماً عظيماً من وفرة سكانها القدماء وأصاب شطراً كبيراً من الثروة التى كانت فى الماضى وآثارها لم تزل ظاهرة للعيان فى القرى والمدن العديدة ،

ولم يكد المصريون يُطردون ويتقلص ظل سطوتهم — وقد كانوا أخضعوا الجميع لحكمهم الشديد — حتى عاد القوم إلى نبذ الطاعة وخلفت الرشوة والتبذير في إدارة المالية النزاهة والاقتصاد، ومنيت المداخليل بالنقص، واستأنف عرب البادية غاراتهم على السكان، فحلت القرى والمزارع المأهولة بالتدريج، حتى أمكن القول إنه لا يوجد ثمَّ ظل للأمن على الحياة والأموال، وكل شيء يدعو إلى عودة الفوضى إلى هذه الديار).

وأهم ما وقع في هذا القرن حادثة النصارى المعروفة بحادثة الستين سنة ١٨٦٠ م وخلاصتها قيام رعاك المسلمين والدروز على نصارى دمشق وقتلهم ونهبهم وإلقاء النار خمسة أيام في حيهم حتى خرب كله. وكانت هذه المذابح بدأت من قبل في لبنان وهلك في دير القمر وزحلة ووادي التيم ألوف من النصارى بيد جيرانهم الدروز. جرى هذا في مدينة التسامح واللاطف، فسود الأشقياء سمعة دمشق بعد أن عاش المواطنون قروناً في صفاء وولاء. وكانت لبعض الدول الغربية يد في إثارة نفوس النصارى من جهة وإثارة الدروز من أخرى.

ويكاد المؤرخون يجمعون على أن الدولة هي التي دفعت

الرعاى أو غصّت الطرف عنهم فارتكبوا ما ارتكبوا ، وكان
والى دمشق لما رأى أهل زحلة يجمعون جموعهم للغارة على الدروز
أرسل إليهم وفداً من دمشق لينصح لهم بالعدول عن فتح باب
الشرق قبل الدروز بمقترحه إلا أن الزحليين لم يقبلوا ، وكان بعد
ذلك ما كان من إثنان الدروز فى جيرانهم النصارى فى لبنان
ووادى التيم ، ثم سرت هذه الشرارة إلى دمشق وهلك فيها من
النصارى ٥٥٠٠ مسيحي وقدر بعضهم عدد القتلى فى لبنان
ودمشق باثنى عشر ألفاً ، وهو عدد مبالغ فيه . وأرسلت الدولة
على الأثر أحد عظماء رجالها فؤاد باشا لإطفاء الفتنة وإرضاء
الدول العظمى حامية النصارى فى الشرق ، فقتل من مسلمى
دمشق ١١١ رجلاً رشقاً بالرصاص وصلب ٥٦ ونفى
١٤٥ وحكم بالأشغال الشاقة على ١٨٦ وكان فى جملة من
قتل ١٨ رجلاً من كبار الأسر ، وأرسل زهاء ألف رجل
إلى المنفى والسجون خارج دمشق ، وقتل الوالى أحمد باشا رميةً
بالرصاص قالوا لتساهله فى الفتنة ، والحقيقة أنه نفذ أوامر
الاستانة فخافت الدولة شيوع الخبر فقتلته ، بعد أن أخذ فؤاد باشا
أوراقه . وأخذت الحكومة تجبى المال للتعويض على المنكوبين

فجبت مئآت الألوف من الليرات غرامة من أهل دمشق يبنون
 بها الحى الذى أصبح طعام النار ، وجندوا ثلاثة آلاف جندى ،
 وجعلوا بدل الخدمة فى الجندية من النقد مائتى ليرة ذهبية ،
 وبلغت الخسائر مليوناً وربع مليون من الليرات . وعاد من دانوا
 بالإسلام من النصارى كرهاً إلى دينهم الأصيل ، وعوضت الدولة
 على المنكوبين من أموال الأهالى ، ولم يصل إلى من أريدت
 معاوتهم مما جبي بهذا الاسم أكثر من الربع ، وضاع الربع
 الثانى فى النفقات ، واختلس الربع الثالث عمال الحكومة ،
 وأصاب صيارفة اليهود الربع الرابع . وكانت الخسارة عظيمة على
 الحكومة وعلى رعاياها من المسلمين والنصارى ، وربحت الدولة
 من كل هذا تذايل الرعية وإخضاع الزعماء وأرباب المقاطعات .
 وخسرت دمشق ألوفاً من البيوت المسيحية هاجرت من دمشق
 إلى بيروت وقبرص ومصر واستوطنوها استيطاناً قطعياً .

ولولا أن مئآت من أعيان دمشق وتجارها وغيرهم من
 أرباب الدين والمروءة فتحوا بيوتهم وصدورهم لحماية المسيحيين
 والمسيحيات لما بقى منهم دينار ، لأن الأمر بعد أن خرج من يد
 الحكومة صار إلى أيدي الرعاع ، والرعاع فى العادة لا حدَّ

لتعديهم وإسرافهم . عمل المسلمون بما فرضه عليهم دينهم من حماية أهل الذمة ، ولكن السياسة لعبت ألاعيبها ، فعوقب حتى بعض من حمى مواطنيه ، وأطعمهم وألبسهم وحننا عليهم .

وكانت الدولة تحاول أن تمثل مثل هذه الفتنة في دمشق قبل نحو ربع قرن فلم تقع في أحبولتها ، لأن الأمر رجع يومئذ إلى أرباب البصيرة والرأى . وذلك أن الدولة أرادت يوم ثورة المورة وجزائر البحر المتوسط سنة ١٢٤٤ هـ أن تقتل طائفة الروم الأرثوذكس في الشام انتقاماً منهم عما أتاه أبناء دينهم في اليونان من عصيان الدولة للوصول إلى استقلالهم ، فأمرت الحكومة واليها في دمشق أن يقتل أبناء طائفة الروم في إيالته ، وكان الوالى عاقلاً على ما يظهر فأحال المسألة على مجلس دعا إليه الأعيان وأرباب الشأن وتلا عليهم أوامر الآستانة ، فكان جوابهم: ليس عندنا مفسدون من النصارى ، وجميعهم ذميون وعاملون بشروط الذمة لا تجوز أذيتهم ، والرسول أوصانا بالذميين ، ونحن لا نقدر أن نتحمل تبعة قتلهم ، وكتبوا محضراً بجميل سلوك نصارى الإيالة وحسن طاعتهم ، وأنهم يؤدون الأموال الأميرية وأنهم يستحقون الرعاية والمرحمة من السلطنة العثمانية . وبصنع أهل دمشق هذا نجحنا من

القتل عشرات الألوف من النصارى . وهكذا كانت سياسة الدولة العثمانية مدة تزيد على أربعة قرون ، تضرب الغنى بالفقر والموافق بالمخالف والطائع بالعاصى ، وتفرق بين أجزاء قلوب رعاياها فى بلد فيه عشرون مذهباً وديناً حتى تخلت عن هذه الديار فى حرب سنة ١٩١٨ م .

دمشق فى العهد الأخير

فتح الجيش الانكليزى والجيش العربى مدينة دمشق أواخر الحرب العالمية وتولى الأمير فيصل بن الحسين حكمها بمعاونة البريطانيين ، ووضع فيها أساس الحكومة العربية . ثم وقع الاتفاق بين الحلفاء على تقسيم الديار الشامية ، فكانت فلسطين وعُبر الأردن من حصّة بريطانيا العظمى ، وسورية ولبنان من نصيب فرنسا . وبعد حين جعلت عصبة الأمم الإشراف على هذا القطر لكل من الدولتين المشار إليهما على هذه الصورة مع الاعتراف بأنه مستقل ويحتاج إلى من يدر به على الحكم من الدول ، وهذا ماسمونه بالانتداب .

وفى عهد الأمير فيصل التأم مؤتمر من نواب الديار الشامية

(فلسطين وشرق الأردن ولبنان وسورية) في مدينة دمشق وقرروا فيه المناداة بالأمير فيصل ملكا على هذه البلاد ، فلم يرق الحكومتين المنتدبتين عمل المؤتمر على ما يظهر ، وطلبت فرنسا دخول جيشها إلى الأرض السورية فمانعت حكومة فيصل ، فدخل الجيش الفرنسي دمشق عنوة بعد وقعة طغيف في قرية ميسلون مع قوة قليلة من الجيش العربي والمتحمسين من الأهالي . وعهدت فرنسا بالحكم في سورية إلى رئيس سوري سمته تارة رئيس وزراء وأخرى رئيس دولة وطوراً رئيس مجلس المديرين ، وجعلوا لكل وزارة ولكل ديوان كبير مستشاراً فرنسياً ، وتغلغل الفرنسيون في جميع فروع الإدارة ، تغلغل جيشهم المحتل في المراكز الحربية . وبينما كانت المهمة منصرفة إلى تقرير الأمن وإصلاح آلة الحكومة ، والقوم يهناون بالراحة وقد نجح أولادهم من خدمة الجندية في الجيش التركي ، وكان كل سنة يهلك منهم ألف في هذه السبيل ، وقد نجوا من الاشتطاط عليهم في أداء المغارم ، نشبت الثورة في جبل دروز حوران ، ولم تلبث أن سرت شرارتها إلى دمشق ، فكانت ثورة مؤلمة في زمن تحتاج فيه البلاد إلى السلام ، فخربت بمدافع الحامية أجمل قصور دمشق

الأثرية وجزء غير قليل من أعظم بيوت حى الميدان وحوانيته وحواصله ومستودعاته ، وخربت عدة قرى فى الغوطة ، وهلك من الأهلين ألوف ، وذهب من ثرواتهم مئات الألوف كانتُ جمعت فى عشرات من السنين .

كان عمل فرنسا فى التنظيم والإدارة والأمن حسناً فى مجموعه ، لكن سياستها كانت غير مستقرة على حالة واحدة ، فكان الرؤساء الوطنيون ينصبون تارة بالتعيين وأخرى بالانتخاب ، ينتخبهم مجلس له صورة المجلس النيابى ، وبعد أخذ ورد طال أمرهما اختاروا الحكم الجمهورى ، وجاء نواب الأمة إلى دمشق يجتمعون فى دار الندوة أى البرلمان على نحو ما يجتمع العريقون فى الحكم النيابى فى الغرب . وإلى الآن تولى الأمر أربعة رؤساء جمهورية ، اثنان منهم انتخبوا انتخاباً نظامياً فى الجملة ، إلا أنهما لم يكملوا مدتهما ، وثالث عينوه بمرسوم وقالوا إنه رئيس جمهورية ، وربما كان هو أول رئيس جمهورية يعينه الغريب بأمر منه ! والرابع من الرؤساء جرى انتخابه على النحو الذى جرى عليه انتخاب الرئيسين الأولين ، وكان ذلك بعد استيلاء البريطانيين على سورية ولبنان فى سنة ١٩٤٠ لأسباب حربية ، وقضوا على

الفرنسيين الذين حافظوا على الطاعة لفرنسا الأم ، وظلوا إلى الآن تحت الاحتلال الألماني . وأصبحت سورية ولبنان مستقلين بحسب العرف الدولي .

وأخذت المفاوضات بين البلدان العربية تدور حول تأليف وحدة من مصر والشام والعراق وجزيرة العرب ، وإذا تمت هذه الأمنية التي تحرص على تحقيقها دمشق حرصاً كبيراً تصبح العاصمة الثانية لهذه الوحدة بعد القاهرة لتوسطها بين الأقطار العربية .

عمران دمشق

لم تبق الأيام في دمشق من عادات الأم البائدة قبل الإسلام سوى مصانع قليلة دائرة يستدل منها على مبلغ عنايتها بال عمران . لا جرم أن دولة الرومان التي طال عمرها في هذه الديار كان لها ممن تسخرهم من الأسرى والأرقاء في إنشاء مصانعها ما لم تكد تصل إليه دولة قبلها ولا بعدها . وعلى هذا الأساس كان حالها في كل قطر استصفته وكل بلد نزلته . ومن آثارها هنا الشارع الأعظم ويدعى المستقيم ، كان ممتداً من الباب الشرقى إلى باب الجابية ، أى من الشرق إلى الغرب وطوله ١٦٠٠ متر وفيه طريق للركبان وآخر للمشاة ، وقد طمر اليوم بما قام عليه من الأنقاض العظيمة ، وما برحت بعض عمده مدفونة على أمتار من سطح الأرض تعلوها الدور والخوانيت ، ولا يظهر منه إلا الباب الشمالى من الباب الشرقى وقسم من الباب الأوسط الكبير . أما باب الجابية فبقى جزء صغير منه .

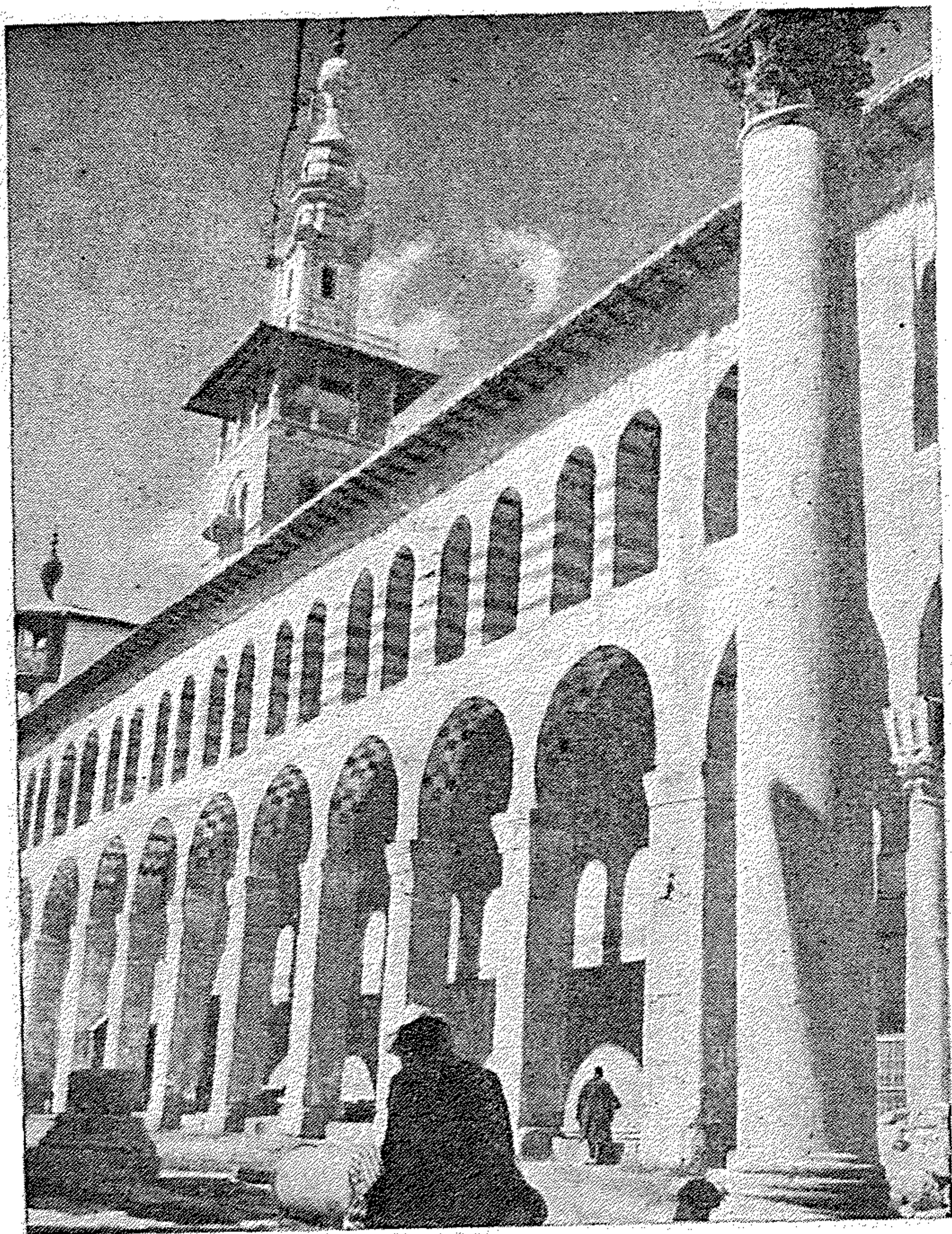
ومن أعظم آثار الرومان اثنان وخمسون حصناً وقلعة أقاموها بين دمشق وتدمر إلى الفرات لتقف حاميتها على الدوام دون

تسرب أهل البادية إلى المعمور من دمشق وأرباضها . وكذلك
 ماشادوه من حصون على الطريق الممتد بين بصرى قصبه إقليم
 حوران ودمشق عاصمة القطر الشامي ليأمنوا عيث البادية أيضاً .
 ومن آثار الرومان قلعة دمشق في غربها سماها العرب «الأسد
 الرابض» وتعاورها بعض الفاتحين بالترميم في أدوار كثيرة ،
 ولا تزال بعض جدرانها قائمة ، وأكثرها خراب ، وقد اتخذها
 كثير من ملوك الطوائف ونور الدين وأخلافه دار إمارة ، وجاءت
 بعض العصور وهي أشبه بمدينة فيها جميع المرافق وأقيم فيها جامع
 بخطبة . ومن آثار القدماء سور البلد وهذا أيضاً جار عليه الدهر
 فنقض مرات ورمم مرات في الدول الإسلامية . وهناك بقايا
 أنقاض بيعة اسمها كنيسة حنائيا يرد عهد بنائها إلى القرن الرابع
 للمسيح ، إلى غير ذلك من الأحجار والتماثيل المهشمة وقليل منها
 السالم ، وقد رُمّ العرب بعض ماعور من المصانع القديمة ، وما أفرطوا
 في تشييد البناء العظيم لأن الإسلام حظر السخرة ، وعاديات
 القدماء كانت من عمل الرقيق والأسارى ، وربما اختار العرب
 لأول أمرهم البناء بالمدر أى بالبن والطين ، ثم تحول البناء إلى
 الحجر في بعض السنين ، وكانوا يؤثرون البناء بالطين والخشب

لأنه أدنى إلى السلامة عند حدوث الزلازل من أبنية الحجر .
 بنى معاوية قصر الإمارة جنوب المسجد الأموي ، وسمى
 بالخضراء لقبة خضراء قامت عليه . قيل إنه أنفق عليه ثمانية عشر
 حملاً من الذهب ، وبنى الأمويون بيوتهم في جوار الجامع ،
 وكان لمعظمهم قصور في الغوطة ، ومنهم من كان يؤثر نزول
 البادية لئلا ينحمل أبناؤهم بعيش الحضارة .

وجاء الخليفة الوليد بن عبد الملك وكان مولعاً بالعمارة فبنى
 الجامع الأموي ، وصالح النصارى على النصف الذي كان أبقاه لهم
 الفاتحون ، وعرضهم عن نصفه أربعين ألف دينار . وكان بدمشق
 خمس عشرة كنيسة للنصارى صولحوا عليها . قال المؤرخون : وهدم
 المسلمون واليهود جميع ما جددت النصارى في تربيعة الجامع
 الأموي من المذابح والأبنية والحنايا ، حتى بقي عرصة مربعة ، ثم
 شرع يبنائه بفكرة جيدة على الصفة الحسنة الأنيقة التي لم يشهد
 قبلها مثلاً .

وذكر المؤرخون أن الوليد أتى بالصناع والمهندسين من الروم
 أي من الروم الوطنيين وبناه على أعمدة من الرخام طبقتين ، الطبقة
 التحتانية أعمدة كبار ، والتي فوقها صغار ، في خلالها صورة كل



الجامع الأموي

مدينة وشجرة في الدنيا معمولة بالفنيسفاء بالذهب والخضرة
والصفرة . وكان ابتداء عمارته في أواخر سنة ست وثمانين ،
وتكامل في عشر سنين . وقبل أن يكون بيعة للنصارى كان
معبدًا للصابئة والكلدان والسريان واليهود . وكان طول الحرم
الأصلى من الشرق إلى الغرب ١٣٠٠ قدم وعرضه من الشمال
إلى الجنوب ١٠٠٠ قدم ، فهو ربع مساحة دمشق في تلك
الأيام ، أنفق الوليد على تشييده وتزيينه خراج الشام سنتين
وقيل أكثر من ذلك ، وكان خراجها ألف ألف دينار
ومائتي ألف دينار كل سنة ، فجاء أجمل جامع في الإسلام يليق
بعاصمة الخلافة الإسلامية . وبقى على جماله إلى سنة ٤٦١ هـ أيام
ذهبت محاسنه في الحريق الذى وقع في دولة الفاطميين وقد حرق
ست مرات في عصور مختلفة ، وكان آخر حريق أصابه في
سنة ١٣١٠ هـ فأعيد إلى ما كان عليه كما كان يعاد في كل
حريق . وأصيب غير مرة بزلازل فتفطرت بعض أركانه
وشراريفه ومآذنه الثلاث .

ولنا بنة بنى شيبان فى الوليد بنى الجامع الأموى من قصيدة
مدحه بها ويصف بدائع هذا الجامع :

قلعت بيعتهم عن جوف مسجدا
كانت إذا قام أهل الدين فابتهلوا
أصوات عجم إذا قاموا بقربتهم
فاليوم فيه صلاة الحق ظاهرة
فيه الزبرجد والياقوت مؤتلق
ترى تهاويله من نحو قبلتنا
يكاد يُعشى بصير القوم زبرجه
وفضة تعجب الرائيين بهجتها
وقبة لا تكاد الطير تبلغها
لها مصابيح فيها الزيت من ذهب
فكل إقباله — والله زينّه —
في سرّة الأرض مشدود جوانبه
فيه المثاني وآيات مفصلة
فصخرها عن جديد الأرض منسوف
باتت تجاوبنا فيها الأساقيف
كما تصوّت في الصبح الخطاطيف
وصادق من كتاب الله معروف
والكلس والذهب العقيان مرصوف
يلوح فيه من الألوان تفويف
حتى كأن سواد العين مطروف
كريمها فوق أعلاهن معطوف
أعلى محاريبها بالساج مسقوف
يضيء من نورها (لبنان) و(السيف)
مبطّن برخام (الشام) محفوف
وقد أحاط بها الأنهار والريف
فيهن من ربنا وعد وتخويف

ووصف ابن منقذ الكناني هذا الجامع بقوله :

وكان جامعها البديع بناؤه . ملك يميز من المساجد جحفا

ذوقبة رفعت فضاهت قلعة ومنابر بنيت فخا كت معقلا
تبدو الأهلة في أعاليها كما يبدو الهلال تعالياً وتهللاً
ويريك سقفاً بالرصاص مدثراً يعلو جداراً بالرخام مزملاً
قد ألف الأقوام بين شكواه فغدا الرخام بذاته متشكلاً
لم يرض تجليلاً بجص فانبرى بالقصّ يعلو والنضار مجللاً
يُعشى سوامَ اللحظ في أرجائه من عسجد أرضاً ومن فصّ حلاً
فاذا تذر الشمس فيه تخاله برقاً تالّق أو حريقاً مشعلاً
فكأنما محرابه من سندس أو لؤلؤ وزمرد قد فصلاً
وتخال طاقات الزجاج إذا بدت منه للحظك عبقرية مسدلاً
تبدو القباب بصحنه لك مثلاً تبدو العرائس بالحلى لتجتلى
وعلت به فوارة من فضة سالت فظنوها معينا سلسلاً
وببابه حركات ساعات إذا فتحت لها باب تراجع مقفلاً

وفي أيام الوليد كان الناس يتكلمون في البنايات والعمائر لزيادة
رغبته في البناء ، فبنت الناس المجالس الحسان عملاً بسنة الخليفة ،
وهو الذي عمر الضياع وحفر الآبار وأقام المنارات في الطرق وهدم
المساجد القديمة وزاد فيها وشيد دور المرضى . وكان إذا ازدادت

أموال الجباية ولم يجد أحداً يقبل الصدقات يبنى بها المساجد .
وشيد من جاء بعده الفنادق ودور الضيافة والخانات وكل ما يسهل
العيش ويجلب الراحة .

وظل الدمشقيون يسيرون على خطة خليفتهم الوليد في عمارة
بلدهم في القرون التالية ، لم ينزع منهم هذا الغرام ، حتى قال بعض
المؤرخين إن الدمشقين في ظاهر مدينتهم وداخلها من القصور
الجميلة ما يدل على شدة ولوعهم باتقان مصانعهم والحرص على
آثارهم . وهذه الخلة مشاهدة فيهم إلى اليوم ، وعندهم أن من
النقص في صاحب السعة ألا يملك داراً قوراء منجدة بالفرش
الجيد ، مستجمعة أسباب الراحة والنعيم .

عمرت دمشق في العهد الأموي عمراناً ما عهدت مثله في القرون
الغابرة ولا في القرون اللاحقة ، فأبقى كل واحد من خلفاء بني أمية
أثراً فيها ، مع أن ملكهم لم يدم أكثر من ألف شهر . وجاء
العباسيون فكان بعض المتقدمين من خلفائهم كالرشيد والمأمون
يختلفون إليها ، كما قال ابن عساكر ، طلباً للصحة وحسن المنظر .
فقد أقام بها المأمون وأجرى إليها قناة من نهر منين إلى معسكره
بدير مران ، وبنى القبة التي في أعلى الجبل وصيرها مرقباً يوقد في

أعلاها النار لكي ينظر إلى ما في عسكره . وصارت هذه القباب بعد ذلك للاعلام بحركات العدو ، وأقام أيضاً مرصداً فلكياً في الجبل . ومن أهم القصور القديمة القصر الذي بناه المأمون بين دمشق وداريا ، ولا يعرف اليوم محله ، وفيه نزل المتوكل العباسي لما نقل دواوين الخلافة من بغداد إلى دمشق . وكان المأمون معجباً بما ترك الأمويون من الآثار ولا سيما جامعهم . قال صاحب الأغاني إن المأمون دخل دمشق فطاف فيها وجعل يطوف على قصور بني أمية ويتتبع آثارهم ، فدخل صحناً من صحنهم فإذا هو مفروش بالرخام الأخضر كله ، وفيه بركة يدخلها الماء ويخرج منها من عين تصب إليها ، وفي البركة سمك وبين يديها بستان على أربعة زواياه سروات كأنها قصت بمقراض من التفافها . كانت صورة دمشق على شكل مربع الأضلاع مستطيل ولها ثمانية أبواب . وربما زاد عدد الأبواب في بعض العصور وردمت بعض الأبواب الأخرى . وأحسن بعض المتأخرين من أهل دمشق منذ قال :

دمشق في أوصافها جنة خلد راضيه
أما ترى أبوابها قد جعلت ثمانية

وكانت متاجر المدينة وأسواقها داخل السور ، والبناء في ربضها يكثر ويقل تبعاً للأمن وقوة السلطان . فقد كانت في القرن السادس أحياء العقيبة والشاغور والمزاز وقبر عاتكة والشويكة والقنوات وسويقة صاروجا (سوق ساروجا) والعنابة من الأحياء الخارجة عن السور ، ثم اتصلت بالمدينة كما اتصل ميدان الحصا بها ، وكان الميدان قرية في الجنوب تربطها بالمدينة تلك الجادة العظمى من باب الجابية إلى باب مصر أو بوابة الله . وكان الشرف الأعلى والأدنى في غربى المدينة عامرين بقصور الأغنياء ورجال الدولة ، وفيها المدارس الحسان والمساجد والأسواق إلى القرن التاسع ، فسطا عليها الخراب . وكذلك كان شأن محلة العنابة فانها خربت حوالى ذلك العصر . وعمرت الصالحية في سفح قاسيون من الشمال في القرن الخامس والسادس حتى أصبحت بمدارسها وجوامعها وأسواقها وخاناتها مدينة برأسها ، ثم تحيفها الخراب في العصور التالية ، ونهضت قليلا في العصر الحديث . فالعمران كان يمتد إلى الجنوب وإلى الشمال وإلى الغرب ، وربما حال دون امتداده إلى الشرق وجود محلتى النصارى واليهود في ذاك السمـت . وجاء زمن والعمران متصل

بدمشق من الغرب إلى الربوة ، وكانت هذه عامرة أشبه ببلدة صغيرة فيها مدارس وجوامع وأسواق ومقاصف وحمامات ، وفيها قصور الأغنياء وإلى جنبها قصر الفقراء الذي بناه نور الدين محمود ابن زنكي ليصطافوا فيه كما يصطاف السراة ، ووقف عليه قرية داريا من أعظم قرى الغوطة ، وفي ذلك يقول الوداعي :

إن نور الدين لما أن رأى في البساتين قصور الأغنياء
عمر الربوة قصراً شاهقاً نزهة مطلقة للفقراء

وحرق قصر الامارة في فتنة الفاطميين فبقيت دمشق بدون دار امارة ، ولما ملكها تاج الدولة تنش في سنة ٤٧١ بنى دار الامارة في القلعة وزاد فيها شمس الملوك دقاق وأنشأ بابين للقلعة مع دار المسرة فيها والحمام المحدث على صيغة اخترعها ، وبنيه اخترعها ، وصفة أثرها .

ولا أثر لما بناه جعفر بن فلاح لما فتح دمشق للفاطميين سنة ٣٥٨ ، وكان نزل بظاهر سور دمشق فوق نهر يزيد ، وأقام أصحابه هناك الأسواق والمساكن ، وصارت شبه مدينة ، وانخذ لنفسه قصراً عجيباً من الحجارة وجعله عظيماً شاهقاً في الهواء ، غريب البناء ، وهذا القصر من المفقود ، كما أنه لا أثر لما بناه

الأشرف بن العادل من القصور والمتنزهات الحسنة في القرن السادس . ولم يبق أثر لقصور السكسكى التى كانت بهجة الأنظار فى القرن الثالث فى إقليم بيت لهما على نحو ميل من شمالى دمشق ، وكانت فى أملاكه هناك عدة قصور مبنية بالحجارة والخشب الصنوبر والعرعر ، فى كل قصر منها بستان ونهر يسقيه ، وكان كل جليل يقدم من الحضرة أى من بغداد ، أو من مصر يريد الحضرة ينزل عنده وفى قصوره . وما خلا عصر من مثل هذه القصور يقيمها أهل اليسار من التجار وغيرهم أو رجال الدولة وأصحاب الوجاهة . وفى العصور الحديثة شيدت قصور كثيرة فى المدينة ور بعضها ومنها ما أنفق عليه من أموال مغبوبة فخرت بعد قليل ، (والحجر المصبوب فى البناء أساس الخراب) كما قيل . وكان فى الصالحية محل يسمى القصر عمره أبو البقاء الصفورى سنة ١٠٣٥ هـ وكان يقال له صاحب القصر ، ولا يعرف هذا القصر ولا القصر الذى كان فى الصالحية أيضاً لحسين بن قرنق وعمره فى سنة ١٠٧٧ هـ وكان يضرب المثل بقاعته . وكان ابن قرنق صدر دمشق عمر الأماكن البهية ومن جملتها هذا القصر . ومن أجل أمثلة البناء الجميل الباقى أكثره دار أسعد باشا

العظم في جوار جامع بني أمية انتهت عمارتها سنة ١١٧٤ هـ وهي مثال من هندسة الدور في العهد الأخير ، اشترتها حكومة فرنسا من ورثتها وجعلتها معهداً للدراسات العلمية ، وقد حُرقت في ثورة سنة ١٩٢٥ قاعها وكانت أجمل ما حوت تلك الدار .

وفي القرن الخامس دخل دمشق طراز من دور العلم سموه بالمدرسة . وأول مدرسة أنشئت للقرآن في سنة ٤٤٤ أنشأها رشاش بن نظيف المقرئ الدمشقي ، وكثرت بعد ذلك دور القرآن ودور الحديث ومدارس الحنفية والشافعية والمالكية والحنابلة والزوايا والرباطات ، أنشأها الملوك وأتباعهم من الأمراء والعقلاء والجواري وبعض أهل الخير من التجار والأغنياء . وختم تاريخ المدارس بانقراض ملوك الطوائف ودخول الدولة العثمانية .

ذكر صاحب كتاب الدارس وهو مما ألف بعد خمس سنين من دخول العثمانيين أن في دمشق ٧ دور للقرآن و ١٨ داراً للحديث و ٥٧ مدرسة للشافعية و ٥١ مدرسة للحنفية و ٤ مدارس للمالكية و ١٠ مدارس للحنابلة . وكان بها أربع مدارس للطب ومدرسة للهندسة ، وفي دمشق وصالحيتها ٢٦ خانقاً و ٢٣ رباطاً و ٢٦ زاوية . وجميع هذه المدارس

والرباطات خربت على عهد العثمانيين ، ولما غادروا دمشق ما كان فيها من تلك المعاهد سوى بضع مدارس أكثرها خراب ، سطا عليها أهل الجوار أو باعها أكلة الأوقاف . وكانت هذه المدارس مدة قرون أشبه بكلّيات لمدرسة جامعة كبرى ، تدرس فيها بعض علوم القدماء إلى جانب علوم الدين واللغة ومنها خرج أعظم الملة ، وكانت من أجمل الأدوات في إخراج المسلمين من الأمية ، تتعاور هذا الواجب مع الجوامع والكتاتيب التي يقفها أهل الخير لتعليم اليتامى والفقراء القرآن والخط ، وتكون على الأغلب على أبواب الجوامع أو على مقربة منها ليألف الضغار الصلاة منذ نعومة أظفارهم .

ولابن منقذ الكنانى فى المدارس :

ومدارس لم تأتِها فى مشكل	إلا وجدت فتى يحل المشكلا
ما أمها مرة يكابد حيرة	وخصاصة إلا اهتدى وتمولا
وبها وقوف لا يزال مغلها	يستنقذ الأسرى ويغنى العيلا
وأئمة تلقى الدروس وسادة	تشفى النفوس وداؤها قد أعضلا
ومعاشر تخذوا الصنائع مكسباً	وأفاضل حفظوا العلوم تجملاً

ومن القصور التي كان يقصدها الزائرون من الأقطار قصر الأبلق
غربي دمشق ، وهو قصر عظيم بنى من أسفله إلى أعلاه بالحجر
الأسود والأصفر بإحكام عجيب ، بناه الظاهر بيبرس (٦٦٨) قالوا
وكان من عجائب الدنيا ، فرش بالرخام البديع الحسن المؤزر بالرخام
المفصل بالصدف والقص المذهب إلى سجد السقف ، وكان على
واجهته الشرقية مائة أسد وعلى الشمالية اثنا عشر أسداً منزلة
صورها بأبيض في أسود . والأسد شعار (رنك) الملك الظاهر .
وعلى مثال قصر الأبلق بنى الناصر محمد بن قلاوون القصر
الأبلق بقلعة الجبل بالقاهرة . وبقى أبلق دمشق عامراً إلى دخول
العثمانيين ، وهو من عمل إبراهيم ابن غنائم المهندس مثل المدرسة
الظاهرية الباقية إلى اليوم ، واسم هذا المهندس العظيم ما برح
منقوراً في الحجر في زاوية باب الظاهرية على يسار الداخل إليها .
كثرت الجوامع والمساجد في الدولتين النورية والصلاحية وزاد
عمران هذه المدينة في القرن السادس ، وفيه كانت كما قال الرحالة
ابن جبیر أكثر مدن الأرض سكاناً ، يضاف هذا إلى ما كان
لها من الغنى المائل في مصانعها ومساكنها وجوامعها ومدارسها .
ذهب كل هذا في فتن الفاتحين المخربين ولم يبق منه إلا بعضه

وهو على تشعبه وخرابه يدل على ذلك العز الذي كان لدمشق .
ولقد اشتهرت دمشق بحماماتها لتدفق المياه عليها من كل صوب ،
واشتهرت حماماتها بأناقة بنيانها وحسن نظافتها ، وفي حماماتها
المحدثة في القرن العاشر وما بعد مقاصير من القاشاني البديع ، وآخر
ما دثر منها حمام القيشاني وحمام الخياطين . وكان في دمشق في
القرن التاسع مائة حمام وأربعة وستون خانا وأهم خاناتها القديمة
اليوم خان أسعد باشا وخان سليمان باشا وخان الحرير .

وعمر السلطان سليم لما فتح دمشق سوراً وأبراجاً من قرية
القابون شمالاً إلى آخر المدينة جنوباً ، وجعل في ذلك السور
أبواباً تغلق على المدينة ، وعمر جامعاً ومدفنًا على قبر محيي الدين
ابن عربي بالصالحية ومدرسة قرب المدرسة السلمانية التي بناها
ابنه السلطان سليمان القانوني مكان القصر الأبلق في المرج الأخضر
اشتهرت دور دمشق بأن داخلها حوى الجمال برمته وخارجها
لا ينبىء عن شيء كثير . وهذا يوم كان جلّ الاعتماد في البنيان
على الطين والخشب يوم قال فيها البحترى :

وتأملت أن تظلّ ركابي بين لبنان طلّعاً والسنير
مشرفات على دمشق وقد أعرض منها بياض تلك القصور

والبيت الدمشقي في العادة عبارة عن صحن أو فناء فسيح في وسطه حوض ماء يتدفق إليه من أنبوب أو فوارة لا تنقطع جريتها ، وقد غرست من الرياحين والأشجار المثمرة كل جميل وعطر ، وعلى جوانب هذا الصحن المخادع والغرف والقاعات ، وفي القاعة بركة ماء أيضاً ، وربما جرت على قامة في الجدار لتزيد في رطوبة المحل في الصيف ، وفي الطبقة الثانية العلالى وهى خاصة بالشتاء على الأغلب . فبيوت دمشق القديمة حوت جميع المرافق ومنها الحديقة والأشجار والمياه . والغالب أن الزلازل في الدهر السالف دعت الأهلىن ألا يستخدموا الحجر فى بنيانهم إلا نادراً ، أما اليوم فالمعول عليه فى البناء الحجر والاسمنت المسلح والآجر والقرميد . لكن الطراز القديم فى البناء أقرب إلى حفظ الحرارة واتقاء البرد من الطراز الحديث ، وأبان ابن منقذ الكنانى عن هذا العمران بقوله :

وإذا مررت على المنازل معرضاً عنها قضى لك حسنها أن تقبلا
 إن كنت لا تسطيع أن تتمثل الـفيردوس فانظرها تكن متمثلاً
 وإذا عنان اللحظ أطلقه الفتى لم يلق إلا جنة أوجدولا
 أو روضة أو غيضة أو قبة أو بركة أو ربوة أو هيكلاً

أو وادياً أو نادياً أو ملعباً أو مذبناً أو مجذلاً أو موثلاً
أو شارعاً يزهو بربع قد غدا فيه الرخام مجزعا ومُفصلاً

اشتهرت دمشق بأديارها قبل الإسلام ، ومن أعظمها دير
مُرَّان في السفح الغربي من قاسيون ، كان مطلاً على مزارع
الزعفران ، وقد ظلَّ عامراً إلى القرن السابع ، وقال فيه الشعراء
من القصائد والمقاطيع كل مرقص ، وكان مقصد الخلفاء والأمراء
وأرباب اللهو والقصف وعشاق الطبيعة . وكان بالسفح في محلة
الصالحية أكثر من دير تطل كلها على المدينة وغوطتها ، وفيها
أشجار السرو ، ولا نعلم في أي قرن دثرت ، كما أنا نجهل الزمن
الذي دثرت فيه أديار الغوطة . أما كنائس دمشق اليوم فكلها
محدثة جددت بعد حوادث سنة ١٨٦٠ وليس فيها من الجمال
ما كان للبيع القديمة ، وللقديم أبداً روعة ليست للجديد .

ومن أجمل ما أبقت الأيام عليه من البناء الفائق بهندسته
المستشفى النورى المعروف بالمارستان داخل المدينة ، والمستشفى
القيمرى في السفح ، فان واجهتهما وواجهة المدرسة الظاهرية
من أجمل ما سلم من العاديات . قال رحالة كبير قديماً إن هذين

المستشفين من مفاخر الإسلام . وقد جرى مؤخراً ترميم واجهتيهما
 ترميماً خفيفاً وأعيدا إلى النحو الذي كانا عليه ، كما رمت عدة
 جوامع وماذن وقبور فعاد إليها بعض رونقها القديم ، ورممت
 واجهة المدرسة الظاهرية ، وفيها دفن الملك الظاهر وابنه الملك
 السعيد . وفي الظاهرية دار الكتب الوطنية وهي قبالة العادلية
 أعظم مدارس الشافعية ، حرق ثلثها وحرقت خزانة كتبها في فتنة
 تيمورلنك ، واستصفي أهل الجوار جزءاً منها بعد حين والباقي
 منها متعة الأنظار ، وهي اليوم دار المجمع العلمي العربي ، وفيها
 خزانة كتبه ومكتبه وردهة محاضراته . ومن آثار الظاهر بيبرس
 عدا المدرسة المنسوبة لاسمه ، وعدا القصر الأبلق الدائر ، ما جدد
 من شراريف رءوس قلعة دمشق ورءوس أبراجها ، وبنى الطارمة
 التي كانت على سوق الخيل ، وبنى حماماً خارج باب النصر . وجدد
 ثلاثة اصطبلات على الشرف الأعلى ، وجدد مشهد زين العابدين
 في الجامع الأموي ورءوس الأعمدة والأساطين وذهبها ، وجدد
 باب البريد ودور الضيافة للرسل المترددين .

وما خلا عصر المماليك والعثمانيين بعدهم من آثار جميلة ، ومنها
 جامع تنكز سنة ٧٤٠ وهو الآن مدرسة دينية ، وكان تنكز كيلبغا

و برسبای وكافل سيبای وجقماق مولعين بإقامة المصانع التي ازدانت بها دمشق فإن يلبغا أنشأ جامعاً عظيماً سنة ٨٤٧ وهو اليوم مدرسة نموذجية ، وأقام برسبای سنة ٨٥٢ جامعته المعروف بجامع الورد ، وأقام كافل سيبای جامعته الذي سماه العلماء « جمع الجوامع » لأن صاحبه لم يترك مسجداً ولا مدفناً معموراً إلا وأخذ منه الأحجار والرخام والأعمدة ، وهو في باب الجابية ، جعل مدرسة ابتدائية منذ أواخر القرن الماضي . ومن مشهور جوامعهم جامع التوبة في العقيبة ، وجامع منجك في الميدان ومدرسة الجقمقية ، أمام المدرسة السُميساطية على الباب الشمالي من الجامع الأموي والمدرسة الصابونية أمام تربة باب الصغير . ومن مدارس العثمانيين جامع السنانية من إنشاء سنان باشا ، وجامع الدرويشية من عمارة درويش باشا ، وجامع مراد باشا في السويقة ومدرسة إسماعيل باشا العظم ومدرسة عبد الله باشا العظم ومدرسة سليمان باشا العظم . وأهم مصانعهم التكية السلمانية والتكية السليمية وجامع ابن عربي . وفي المعاهد الثلاثة الأخيرة نموذجات مهمة من القاشاني . وللتكية السلمانية نسبة لسليمان القانوني روعة عظيمة ولها مئذنتان جميلتان . وقيل إن هذه المدرسة العظيمة من بناء المعمار سنان التركي المشهور

ودفن فيها مؤخراً بعض ملوك بني عثمان ، شغلت الجامعة السورية قسماً منها وبقى القسم الأكبر جامعاً .

ومن المآذن العظيمة المئذنة الغربية بالجامع الأموي ، عمرها سلوان بن علي المعمار في عهد المماليك ، ومئذنة جامع كافل سيدي ومئذنة جامع المعلق سنة ١٠٥٨ ، وهذا الجامع أجمل بناء في دمشق . وأجمل منابر دمشق منبر جامع الجراح في السويقة ومنبر جامع الحنابلة في السفح ومنبر جامع مراد باشا ومحرابه ومحراب جامع التوبة ومنبر جامع الشيخ عبد الغني النابلسي وسقفه وشعريته في السفح . كل هذا من عمل الأفراد ، ومنه ما عمل رجاء الثواب وحب الخير ، ومنه ما أريد به الظهور وحماية أموال الباني بوقفها على ما بنى . وكان عمران المدينة أيام العثمانيين كثيباً ، وتكدس الناس في رقعة ضيقة يجمعون الأزقة ملتوية ليختبئوا وراءها وتكون لهم متاريس ساعة يدور القتال في الشوارع والحارات . وكان من نصيب الدور القديمة أن اختبأت في هذه الأزقة ولا ينم ظاهرها إلا عن فقر وخصاصة .

ومن أهم الآثار النفيسة في العهد التركي الأخير سكة حديد الحجاز وطولها ١٣٠٣ كيلومتراً ، كانت تمتد من دمشق إلى

المدينة المنورة ، عمرت بإعانات العالم الإسلامي ، ومحطتها من أجل الآثار الحديثة هندسة ، وبالسكك الحديدية التي ربطت دمشق بحيفا و بيروت وحلب والموصل ، وبالترام الذي ربط شمال دمشق بجنوبها وغربها بشمالها الشرقي حتى بلغ دومة حاضرة الغوطة ، أصبحت دمشق كالقاهرة مرتبطة مع الضواحي ، وتم هذه الشبكة متى جرى تمديد النور والترام إلى الغوطة الوسطى والغوطة الغربية . ولقد اتسعت المدينة من الشمال منذ أنشئ المستشفيان الاسكتلندي والفرنسي في حي القصاع ، ولولا نشوب الثورة السورية سنة ١٩٢٥ — ١٩٢٦ لبلغ العمران أرض العناية على ما كان في القرن التاسع .

وامتد العمران في الجنوب فعمرت عدة محلات وأحياء جديدة وأهم ما تم من العمران كان في الشمال والغرب من دمشق ، وفيه قامت الدور الجديدة والقصور المنيفة ، منها قصر العابد وهو قصر رئاسة الجمهورية السورية وقصر ناظم باشا وغير ذلك من المصانع وبعضها عمر بأموال التجار على طراز البيوت ذات الطبقات الثلاث والأربع ، فخرجت هندسة البيوت عن طراز البيوت أمس ذات الطبقتين فقط . ولولا الحرب وصعوبة تناول مواد

البناء لبلغت البيوت المنشأة حديثاً نحو ربع أو ثلث المدينة الحالية . هذا والقوم زهدوا في سكنى البيوت العتيقة على جمالها وكرهوا البيوت الواسعة في أحياء عامة وأزقة ضيقة يقل فيها النور والشمس وتحتاج إلى خدمة كثيرة . وعلى ما خرق في الحارات القديمة من أزقة ومنافذ لا تزال المدينة تحتاج إلى شوارع صحية ليظهر بها ما بقي فيها من القصور والقاعات المزخرفة بأجمل الصناعات الدمشقية ، وما فيها من مدارس وجوامع أثرية ومن أهم ما يستلزمه اتساع العمران ووفرة السكان أن تنشأ لدمشق مقبرة عظيمة بعيدة عن أقصى حدود المدينة يلزم الأهليون بأسرهم بالدفن فيها بعد الآن ، وتغرس المقابر القديمة التي أصبحت ممتزجة بالدور والخوانيت أشجاراً ورياحين بحيث لا يمضي خمسون سنة حتى تندثر معظم القبور القديمة وتبقى قبور العظماء الراقدين في تلك التربة . وبذلك تجمع دمشق إلى رعاية الصحة زيتتها بمحذائق تليق بعظمتها التاريخية . وهذا من أعمال المجالس البلدية . وقد آن أن يطلب منها مثل تلك المطالب بعد أن دخلت في طور البلديات في الجملة ، أي أصبحت ذات قانون وذات هندسة ، ولها تصميمات ومصورات . والواجب على الأهلين أن يعاونوها

على تحقيق رغائبها ، ولو فعلوا مختارين لا مكرهين لما قامت بعض
 العمائر المستحدثة متشابكة متراسة في بنائها . والبلدية هنا خطت
 خطوات ، وقد رأيناها قبل أربعين سنة تبيع العرصات الواقعة
 في جادة الميدان وتسمح للأهلين أن يبنوا حواصل وحوانيت
 ودوراً أمام واجهات الجوامع والمدارس ، فتورث تلك الجادة
 العريضة بشاعةً وشناعةً . وكان ديوان الحسبة قبل تأسيس
 البلديات في القرن الماضي يتولى من المدينة كل ما له صلة بالبناء
 والطرق والصحة وغير ذلك ، ثم ضعفت هذه الحركة وضعفت
 مشخصاتها وأهمها الهندسة ، فقد فقدت في أكثر ما قام من
 العمران فأصبح كل بان يبنى كيف يشاء بما شاء من مواد البناء .
 ومن الأبنية الحديثة سراى الحكومة والمجلس البلدى ودار
 الشرطة والثكنة الحميدية ومدرج الجامعة السورية ودار التوليد
 ودار الآثار ودائرة الأملاك العقارية ودار الأوقاف ودار الصحة
 ودار الندوة (البرلمان) ومدرسة التجهيز ووكالة العابد . ومن الفنادق
 الحديثة أوريان بالاس وفندق أمية وهما أعظم الفنادق . والفنادق
 القديمة تتداعى وتخلفها فنادق من الطراز الحديث ، كما خربت
 فنادق القرون الوسطى ودور الضيافة ولم يعرف لها أثر ولا خبر .

عرفنا بما أسلفنا أن عمران دمشق كان يمتد كثيراً في الأيام التي تنجو فيها من آفات الطبيعة وعدوان الظالمين ، ويظهر عليها الغنى والرفاهية . ومن شأن الخلق إذا أمنوا واطمأنوا أن يتوسعوا في عيشهم ويظهروا فضل النعم عليهم .

مخطط دمشق ومصانعها

تنقسم ^(١) دمشق اليوم إلى قسمين متجاورين، المدينة القديمة والمدينة الحديثة . يقوم القسم القديم حول جامع بني أمية والقلعة داخل السور وظاهره . وقد حافظت أحيائها على مظهرها القديم وعلى ما كانت عليه منذ مئات من السنين . ويخترق هذه المنطقة من الغرب إلى الشرق شارعان الأول شارع الملك فيصل يمتد شمال سور المدينة ويصل ساحة الشهداء بمحلى القصاع وباب توما ، ويمر فيه خط ترام طوله أحد عشر كيلومتراً يصل دومة بدمشق . وفي هذا الشارع حوانيت العلافين والحدادين وبائعي البقول والأثمار وحواصل الخشب وفيه سوق الخضراوات

(١) أشكر لأصدقائي الأسانذة الأمير جعفر الحسنى والسيد بدر الدين دياب والسيد هانى الجلاد على تفضلهم باعطائي معلومات حديثة عن خطط المدينة وصناعاتها وتجارتها .

وفيه جامعان أثريان جامع السادات وجامع المعلق .
والشارع الثاني سوق مدحت باشا يقع إلى الجنوب وداخل
السور وهو جزء من الشارع المستقيم القديم الذي يصل باب الجابية
بالباب الشرقي . وتكثر في هذا الشارع متاجر النسيج الوطني والأعبئة
والكوفيات والعقل والنحاسون ، وبين هذين الشارعين شارع
ثالث وهو سوق الحميدية جنوبي القلعة وينفذ منه إلى جامع
بنى أمية ، وهو من أهم شوارع المدينة تتمركز فيه الحركة التجارية ،
وفيه أكبر مخازن المصنوعات الأجنبية . وبين هذا الشارع
وشارع مدحت باشا تتجدد اليوم محلة سيدى عمود التي قضى
عليها حريق عام ١٩٢٥ . ويعارض هذه الشوارع عدد كبير
من الطرق والأزقة ليسهل اتصال هذه الشوارع ببعضها ببعض .
وهناك عدة شوارع متسلسلة تمتد من شمال المدينة إلى جنوبها
تبتدىء من ساحة الشهداء فتخترق محلة السنجقدار و باب الجابية
والسنانية والسويقة و باب المصلى والميدانين التحتانى والفوقانى ،
وتنتهى عند باب مصر الواقع فى أقصى جنوب المدينة ومنه كان
يخرج حجاج بيت الله الحرام . فى هذا الشارع خط ترام طوله
ثلاثة كيلومترات ونصف كيلومتر وفيه عدد كبير من المتاجر

البسيطة معظم علاقتها مع القرويين ولا سيما الميدان وباب المصلى مركز تجارة الحبوب .

وقد حافظ أكثر أقسام هذه الشوارع الأخيرة على حالتها القديمة ، ونصيبها من التجدد والعمران ضئيل ، ويخيم عليها مظهر الكآبة والفقر . ولولا وفرة الأبنية الأثرية التي تزين هذه الشوارع لما امتازت عن عمران قرية من القرى . وأشهر آثارها إذا ابتدأنا من الشمال جامع درويش باشا وتربته والمدرسة السباهية (كافل سيباي) وجامع العجمي وتربة بهادر آص والمدرسة الصابونية وتربة الشيباني وتربة الشيخ حسن وجامع جوبان وجامع صهيب وجامع منجك وجامع فلوس وزاوية سعد الدين والمدرسة الفونشلية والمدرسة الرشيدية . وقد أحيطت المدينة القديمة منذ عهد قريب بشوارع جديدة إحاطة السوار بالمعصم حتى يتجه العمران إليها وتخف وطأة الازدحام في شوارع المدينة الرئيسة .

لا يتأتى لمن يجول في المدينة القديمة أن يظفر بجميع محاسنها على وجه السرعة ، اللهم إلا ما يشاهده من مساجد وخانقاهات وحمامات وبمارستانات عمرت في شوارع ضيقة وبين أبنية

وضيعة ، قد يستغرب المرء تشييدها بينها ، ويدهش للبون الشاسع والتناقض الصريح بين مظهريهما . ولا يمكن أن يدرك سر وجودها في هذا الوسط الحقير بمظهره ما لم يجتز هذه الجدران البسيطة ويطلع على ما وراءها ليرى دوراً شرقية كصور ألف ليلة وليلة ، فيها باحات واسعة مرخمة بالمرمر تظللها الأشجار والرياحين وإيوانات شارع وقاعات مزخرفة وبرك ماء جارية تهبج الأبصار وتنعش النفوس . وعندئذ تتجلى له حقيقة دمشق وما كانت عليه من العظمة في العصور القديمة ويدرك سبب شهرتها وافتتان الناس قديماً بمحاسنها ، وإكثار الشعراء من وصفها .

وعلى ذكر الشوارع لا بد من الإشارة إلى أن بعض أسواق المدينة لا تزال مغطاة غير مكشوفة على نحو ما كانت الشوارع في معظم بلاد الشرق قديماً . ومن الشوارع المسقوف بجمالون من حديد أو حجر أو خشب وطين مثل سوق مدحت باشا وسوق الذراع وسوق الأروام وسوق الحرير والقوافين والسكرية وسوق القطن ومصلبة باب السريجة وباب الجابية والسنانية .

وقد امتد البناء الجديد في غرب سفح جبل قاسيون حتى اتصل بمحلة الصالحية وحى الأكراد وساحة الشهداء . وتقدر

مساحة ما تجدد من المساكن في هذه المنطقة بثلاث مساحة المدينة القديمة . ويربط الأحياء القديمة بالأحياء الجديدة خطٌ ترام طوله ٣٢٠٠ متر يمر من جادة الصالحية حتى المهاجرين ، ويتفرع عنه خط ثان من الجسر متجهاً إلى حي الشيخ محي الدين طوله ١٠٠٠ متر . ومصور الأحياء الجديدة والصالحية يشبه طيارة مطاردة، جناحها الأيمن حي الأكراد والصالحية ، وجناحها الأيسر حي المهاجرين ومؤخرتها محلة عرنوس والشهداء . وهذه الأقسام خالية من كل أثر قديم . أما محلة الأكراد والصالحية فغنية بالأبنية الأثرية ، وأشهرها المدرسة العمرية والتربة الخاتونية والبدرية والمدرسة الأتابكية والجامع المظفرى والمدرسة الجهاركسية والركنية والصاحبة والبيارستان القيمرى وتربة السيدة حفيظة والخاتونية والمدرسة المرشدية والتربة القيمرية والتكريتية وجامع محي الدين بن عربى ، ومعظم هذه الأبنية من العهد الأيوبى . وأما أحدث الأبنية وأجمل القصور فتقوم غربى محلاتى الشهداء وعرنوس حيث تنشأ أحياء غربية مجردة من الطابع الشرقى . وقد أصبح الفرق بين أحياء المدينة القديمة والحديثة عظيماً جداً من حيث طراز البناء والعادات . فبينما نرى المدينة القديمة لم تزل

حريصة على تقاليدھا الشرقية الإسلامية نرى عكس ذلك في الأحياء الجديدة حيث أصبح السفور ولبس القبعات وكشف الرأس ولبس (الشورت) وحف الشاربين من الأمور المألوفة التي لا تنكر .

إن الأقسام الجديدة هي مناطق سكن ، ليس فيها سوى حوانيت بسيطة في جادة الصالحية . وقد اختار الأجانب هذه المنطقة لسكنائهم . وفيها البرلمان السوري والقصر الجمهوري ودوائر السلطة الإفريقية والقنصليات والمعاهد الأجنبية .

وقد خطت دمشق منذ عشرين سنة خطوات سريعة في سبيل العمران وأنشئت فيها أحياء حديثة وتجددت أخرى ، مما يبشر المدينة بمستقبل زاهر ، لا سيما بعد أن وضع لها مخطط روعي فيه أحدث أساليب العمران ، وقد أُنجز أثناء هذه الحرب تنظيم مدخل دمشق ، فصار يدخل إليها القادم من بيروت من شارع عريض طوله خمسة كيلومترات بين الحدائق والأشجار ، يطل منه على ملعب المدينة ودار الآثار والجامعة السورية ومدرسة التجهيز وتكيتي السلطانين سليم وسليمان ، وهو أحد متنزهات المدينة التي تغبط عليها . وقد دعى مؤخراً شارع فاروق الأول .

وتتمتاز دمشق عن غيرها من المدن بكثرة متنزهاتها ، تحديق بها الأشجار من كل جهة وحيث خرجت منها لا ترى إلا متنزهات وأشهرها وادي الربوة ودمر والمزة وسهل القابون والغوطة . وأما ملامى المدينة ودور السينما والفنادق فهي بجوار ساحة الشهداء حيث أكثر المصانع الرسمية . ولا يمضى على دمشق وقت طويل حتى تصبح في طليعة المدن الشرقية عمراناً وتنسيقاً ، وتستعيد مركزها القديم الزاهر تجمع بين القديم والحديث فيجد فيها كل غاوٍ هواه بعون الله .

بعض الكتابات والنقوش الأثرية

يقول الأثرى (فان برشم) إن في الجامع الأموى في دمشق نصوصاً عربية وكتابات عجيبة من عهد السلجوقيين كتبت بالقلم الكوفى ، وسلسلة من أوامر سلاطين المماليك ، وأبواب المدينة عبارة عن متحف للملوك الشام منذ عهد نور الدين والملك العادل إلى زمن الغورى . وفي وقفيات هذه المعاهد المزبورة على المساجد والمدارس والمستشفيات والأديار والقبور تفاصيل غريبة في إدارة هذه الأبنية وجغرافية ضاحية دمشق . وفي هذه المدينة يتيسر

للناظر في بعض الكتابات الباقية من عهد نور الدين تعيين الزمن الصحيح الذي خلف فيه الخط المدور الخط الكوفي .

ولقد كشفت في الأعوام الأخيرة واجهة عظيمة من الحائط الغربي في الجامع الأموي معمولة بالفسيفساء ، ويرد عهدا إلى أوائل بناء الجامع ، كما كان عثر في قبة صحن هذا الجامع على رقوق من أهم ما ظفر به الباحثون . وكانت هذه القبة القائمة على سوارٍ عالية معلقة لم تفتح منذ قرون طويلة ففتحت سنة ١٣١٧ هـ بأمر السلطان عبد الحميد الثاني العثماني ، وإجابة لمقترح الإمبراطور جليوم الثاني الألماني ، فوقعوا فيها على قطع من الرقوق كتبت فيها سور من القرآن الكريم بالخط الكوفي ومنها قطع من مصاحف وربعات ومقاطع من الأشعار بالأرمنية الفلسطينية وكتابات وأدبيات دينية وقصص رهبانية ، ومزامير عربية بالحرف اليوناني ومقاطع من شعر أوميروس ، وكراريس وأوراق بالقبطية والكرجية والأرمنية في موضوعات دينية ، وجزازات عبرانية وسامرية فيها نسخ من التوراة وتقاويم أعياد السامريين ، وصلوات وصكوك بيع وأوقاف وعقود زواج ، بينها مقاطع لاتينية وإفرنسية قديمة ، وقصائد يرتقى

عهداً إلى أيام الحروب الصليبية ونسخ إنجيل برقوق .
 فأهدى السلطان قسماً منها إلى إمبراطور ألمانيا ، والباقي
 ما زال مخبوءاً في مستودع وزارة الأوقاف في الآستانة ، وأهدى
 بعض رجال السلطنة في دار الملك وفي عاصمة الأمويين بعض
 الرقوق من القرآن منها مجموعة حفظت في دار الآثار بدمشق
 بينها قطعة كوفية مكتوبة على رق من ربة شريفة وقفها
 عبد المنعم بن أحمد سنة ٢٩٨ وعلى الوجه الثاني نقش مذهب
 باسم واقفها .

وبعد فإن من ألقى نظرة عجي على بعض المساجد الأثرية يقرأ
 خطوطاً جميلة ويسقط على نقوش بديعة من صنع أهل الفن من
 الدمشقيين . ففي جامع التيروزي والدرويشية والسفانية والمرادية
 وجامع أقوش النجيبى فى السويقة نماذج من القاشانى البديع ،
 وفى جامع التبان بالمناخلية عمودان من القاشانى على طول متر
 وله منبر مهم ، وفى مدفن الصحابى بلال الحبشى تابوت صنع
 سنة ٦٢٥ وفيه قاشانى من صنع كوتاهية . وفى جامع تنكرز قبران
 فى حجرة واحدة ولها محراب من الفسيفساء وناقذتان جميلتان .
 ويكثر القاشانى فى الجوامع التى بنيت فى عهد العثمانيين وفى

بعض الدور القديمة التي يرد عهد بنائها إلى أكثر من قرنين .
ولا تكاد قاعة قديمة في البيوت القديمة التي بناها أرباب اليسار
تخلو من القاشاني البديع . وفي زقاق السقطى في الصالحية بيتان باسم
وقف السقطى تجد في الأول منهما ١٦ قطعة مربعة من القاشاني
على صورة محراب كتبت عليه أسماء الخلفاء الراشدين ، وفي الثانية
قطعة مسدسة الشكل و ٤ قطع مربعة . وفي جامع الشامية
معرشات بديعة وخطوط . وتابوت السيدة سَكينة في مقبرة
الباب الصغير عمل سنة ٥٦٠ ، ونقش بخطوط كوفية داخل حروف
ونقوش وحروف أخرى بالكوفية ، وتابوت سيدى صُهَيْب في
الميدان من توأيت القرن السادس ، وتابوت بنت خاتون
المعروفة بالسيدة حفيظة جميل بديع . وفي الصمادية في حي
الشاغور عدة سقوف مهمة . وفي بعض الأحياء القديمة سقوف
بديعة باعها أصحابها من عشاق الآثار ، كما باعواهم الصناديق
القديمة المكتّبة وأكثرها من خشب الجوز المتين . وفي المدرسة
التكريتية أمام دار الأشرافية البرانية بالصالحية مقرنصات جميلة
ذات تعاريش وكتابات .

وصف القدماء والمحدثين لدمشق

قيل لإسحق بن يحيى الختلى من ولاية دمشق ٢٣٥ هـ : لِمَ سكنت دمشق وفلحت أرضها وأكثرت فيها الغروس من أصناف الفاكهة ، وأجريت المياه إلى الضياع وغيرها ؟ قال : لا يُطبق نزولها إلا الملوك . وقيل له : كيف ذلك ؟ قال : ماظنكم ببلدة يأكل فيها الأطفال ما يأكله في غيرها الكبار ؟ وحق لهذا الوالى أن يقول ذلك ، فإن دمشق معروفة منذ القديم بأنها بلدة رفاهية يكاد الفقير يعيش فيها عيش الغنى إلا قليلاً ، ويتفنن أهلها في ما آكلهم ومشاربهم وقصفهم ولهوم .

وصف المقدسى فى القرن الرابع مدينة دمشق بأنها مصر الشام ودار الملك أيام بنى أمية ، وثم قصورهم وآثارهم وبنيتهم خشب وطين . . أكثر أسواقها مغطاة ولهم سوق على طول البلد مكشوف حسن . . لا ترى أحسن من حماماتها ولا أعجب من فواراتها ، ولا أحزم من أهلها ، ومنازلها ضيقة وأزقتها غامة . . تكون نحو نصف فرسخ فى مثله فى مستوى ، والجامع أحسن شئ للمسلمين اليوم ، ولا يعلم لهم مال مجتمع أكثر منه . .

ووصف ابن جبير في القرن السادس هذه المدينة فقال : « إنها بلد ليس بمفرط الكبر ، وهو مائل للطول ، وسككه ضيقة مظلمة و بناؤه طين وقصب ، طبقات بعضها فوق بعض ، ولذلك كثيراً ما يسرع الحريق إليه ، وهو كله ثلاث طبقات فيه من الخلق ما تجمعه ثلاث مدن لأنه أكثر بلاد الدنيا خلقاً »

ووصفها ياقوت في القرن السادس أيضاً قال : « ومن خصائص دمشق التي لم أر في بلد آخر مثلها كثرة الأنهار بها وجريان الماء في قنواتها ، فقل أن تمر بحائط إلا والماء يخرج منه في أنبوب ، إلى حوض يشرب منه ويستقي الوارد والصادر ، وما رأيت بها مسجداً ولا مدرسة ولا خانقاهاً إلا والماء يجري في بركة في صحن هذا المكان ، والمساكن بها عزيزة لكثرة أهلها وساكنين بها وضيق بقعتها ، ولها رَ بَض دون السور محيط بأكثر البلد يكون في مقدار البلد نفسه . »

ووصفها شيخ الربوة وهو ابن دمشق أوائل القرن الثامن فقال : « إنها مقسومة ثلاث طبقات قسم مبثوث العمارة في غوطتها لو جمع لكان مدينة عظيمة ، ما بين جواسق وقصور وقاعات واصطبلات وطواحين وحمامات وأسواق ومدارس وترب وجوامع

ومساجد ومشاهد غير القرى والضياع الأمهات ، وهذا الذي ذكرناه لا يوجد غيرها أصلاً . والقسم الثاني تحت الأرض منها مدينة أخرى من متصرفات المياه والقنى والجداول ومسارب ومخازن وقنوات تحت الأرض كلها ، حتى لو حفر الإنسان أينما حفر من أرضها وجد مجارى المياه تحته مشبكة طبقات يمنية ويسرة شيئاً فوق شيء . والقسم الثالث سورها وما فيه وحوله من المعمور . وكأنما هي في وصفها طائر أبيض في مرج أخضر ، يترشف ما يصل إليه من الماء أولاً فأولاً » اه . وهذا أصدق وصف ينطبق عليها إلى اليوم . ووصفها ابن فضل الله العمري الدمشقي في القرن الثامن فقال : « إن غالب بنائها بالحجر ، ودورها أصغر مقادير من دور مصر لكنها أكثر زخرفة منها ، وإن كان الرخام بها أقل دائماً ، فهو أحسن أنواعاً ، وإن عناية أهل دمشق بالمباني كثيرة ، ولهم في بساطتهم منها ما تفوق به وتحسن بأوضاعه ، وأجل حاضرتها ما هو بجانبها » . وقال ابن بطوطة في هذا القرن أيضاً : « إن أهل دمشق يتنافسون في عمارة المساجد والزوايا والمدارس والمشاهد » . ووصفها القلقشندي أوائل القرن التاسع فقال : « إنها مدينة حسنة الترتيب جليلة الأبنية ذات الحواجز ،

بنيت من جهاتها الأربع ، وبها الجوامع والمدارس والخوانق
والرُّبُط والزوايا والأسواق المرتبة والديار الجليلة المذهبة السقف
المفروشة بالرخام المنوع ، ذات البرك والماء الجارى ، وربما جرى
الماء فى الدار الواحدة فى أماكن منها ، والماء مُحْكَم عليها من
جميع جهاتها بإتقان محكم . »

وعرض لوصفها الظاهرى فى القرن العاشر بقوله : « إنها مدينة
حسنة إلى الغاية تشتمل على سور محكم وقلعة محكمة ، وبها طارمة
مشرفة على المدينة فيها تحت المملكة مغطى لا يكشف إلا إذا
جلس السلطان عليه ، وبها جوامع حسنة ومدارس وأماكن
مباركة وشوارع وأسواق وحمامات وبساتين وأنهر وعمائر تحير
الواصف ، وبها مارستان لم يرفى الدنيا مثله قط . وأما جامع بنى
أمية فهو أحد العجائب الثلاث ، ولقد رأيت فى بعض التواريخ
أن عجائب الدنيا ثلاث : منارة الإسكندرية وجامع بنى أمية
وحمام طبرية . أما الميدان الأخضر وما به من القصور الحسنة
فمجيبة من العجائب ، وأما مفترجات دمشق فيعجز الواصف
عن حصرها » اهـ .

هذا قليل مما قاله الأقدمون فى وصف دمشق ، وما منهم إلا

المعجب بما زانتها به الطبيعة ، وما عملته يد الإنسان في أديمها .
وقد بالغ الشعراء وأكثروا في وصف طبيعتها ، وربما بلغ
ما مدحت به مجلداً برأسه ، فمنهم من قال مخاطباً لها :

ولكم أحدث عنك من لاقيته وجميع من سمع الحديث يصدق
والأرض في عرض وطول دائماً لم يحو مثلك غربها والمشرق

ومنهم من وصفها بقوله :

يغذى بها القلب أنفاساً بلا كدر فلن يحلّ الوبا أطرافَ ثاويها
إن الهواء إذا رقت مناسمه في بلدة لطفّت أخلاط أهلها
فكل صورة أنس في منازلها وكل نزهة نفس في روايها
لولا أمور وأرزاق مقدرة لم يرتحل عن دمشق حاضر فيها

وفيهما يقول البحترى في قصيدته للخليفة المتوكل التي مطلعها :

العيش في ليل (داريا) إذا بردا والراح نمزجها بالراح من (بردى)

إلى أن قال :

أما دمشق فقد أبدت محاسنها وقد وفي لك . طريها بما وعدا
إذا أردت ملأت العين من بلد مستحسن وزمان يشبه البلدا
يمسى السحاب على أجبالها فرقا ويصبح النبات في صحرائها بددا

فلست تبصر إلا واكفاً خضلاً أو يانعاً خضراً أو طائراً غرداً
كأنما القيظ ولي بعد جيئته أو الربيع دنا من بعد ما بعداً

ومن أجمل ما قيل في مدحها قصيدة أمير شعراء العصر
أحمد شوقي . وها هي برمتها :

قُمُّ نَاجٍ جِلَّقٍ وانشدرسم مَنْ بانوا مشت على الرِّسم أحداث وأزمان
هذا الأديم كتاب لا كفاء له رثُ الصحائف باق منه عُنوان
الدين والوحي والأخلاق طائفة منه وسائرُه دنيا وبهتان
ما فيه إن قلبت يوماً جواهره إلا قرائح من « راد » وأذهان
بنو أمية للأنباء ما فتحوا وللأحاديث ما سادوا وما دانوا
كانوا ملوكاً سرير الشرق تحتهم فهل سألت سرير الغرب ما كانوا
عالين كالشمس في أطراف دولتها في كل ناحية ملك وسلطان
يا ويحَ قلبي مهما انتاب أرسهم سرى به الهمُّ أو عادته أشجان
بالأمس قمت على (الزهراء) أندبهم واليوم دمعى على (الفيحاء) هتان
في الأرض منهم سماوات وألويةٌ ونيرات وأنوال وعقبان
معادن العز قد مال الرِّغام بهم لو هان في تر به الإبريز ما هانوا
لولا دمشق لما كانت (طلَيْطِلَة) ولا زهت بيني العباس (بغدان)

مررت بالمسجد المحزون أسأله
تغير المسجد المحزون واختلفت
فلا الأذان أذانٌ في منارته
آمنت بالله واستثنت جنته
قال الرفاق وقد هبت خائلها
جری وصفق يلقانا بها (بردى)
دخلتها وحواشيها زمردة
والخورفي (دمر) أوحول (هامتها)
و (ربوة) الواد في جلاب راقصة
والطير تصدح من خلف العيون بها
وأقبلت بالنبات الأرض مختلفاً
وقد صفي (بردى) للريح فابتدت
ثم انثنت لم يزل عنها البلال ولا
خلفت (لبنان) جنات النعيم وما
حتى انحدرت إلى فيحاء وارفة
نزلت فيها بفتيان جحاجة
بيض الأمرة باق فيهم صيد

هل في المصلى أو الحراب مروان
على المنابر أحرارٌ وعبدان
إذا تعالى ولا الأذان آذان
دمشق روحٌ وجنات وريحان
الأرض دار لها (الفيحاء) بستان
كما تلقاك دون الخلد رضوان
والشمس فوق لجين الماء عقيان
حور كواشف عن ساق وولدان
الساق كاسية والنحر عريان
والعيون كما للطير ألحان
أفوافه فهو أصباغ وألوان
لدى سستور حواشيهن أفنان
جفت من الماء أذيال وأردان
نبئت أن طريق الخلد لبنان
فيها الندى وبها (طى) و (شيبان)
آباؤهم في شباب الدهر غسان
من (عبد شمس) وإن لم تبق تيجان

يا فتية الشام شكراً لا انقضاء له
ما فوق راحتكم يوم السماح يدُ
خيلةُ الله وَشَّتْهَا يداه لكم
شيدوا لها الملك وابنواركن دولتها
لو يُرْجِع الدهر مفقوداً له خطر
الملك أن تعملوا ما استطعتمو عملاً
الملك أن تُخرج الأموال ناشطة
الملك تحت لسان حواه أدب
الملك أن تتلاقوا في هوى وطن
نصيحة ملوؤها الإخلاص صادقة
والشعر ما لم يكن ذكرى وعاطفة
ونحن في الشرق والفصحى بنور حرم

لو أن إحسانكم يجزيه شكران
ولا كأوطانكم في البشر أوطان
فهل لها قيم منكم وجنان
فالملك غرس وتجديد وبنیان
لآب بالواحد المبكى ثكلان
وأن يبين على الأعمال إتقان
لمطلب فيه إصلاح وعُمران
وتحت عقل على جنبه عرفان
تفرقت فيه أجناس وأديان
والنصح خالصه دين وإيمان
أو حكمة فهو تقطيع وأوزان
ونحن في الجرح والآلام إخوان

وصف الافرنج منذ القرن الماضي دمشق وصفاً يختلف باختلاف
معرفتهم وسياسة دولتهم ، وهاكم نموذجات منها . فمن أول من
وصفها (قولني) الرحالة الفرنسي ، زارها حوالى سنة ١٧٨٨ ، ومما
قاله فيها : إن العرب لا يذكرون دمشق إلا معجبين بها ،

ولا يفتأون يمتدحون خضرة حدائقها ولطافة نسيمها وكثرة فاكهتها
وتعدد أصنافها ، ووفرة مياهها العذبة وصفاء فواراتها وعيونها .
وهى إلى هذا متفردة بوجود أما كن للنزهة فى الخلاء وسط الريف
والقلاة . وما من مدينة كدمشق تحوى قنوات وسلسبيلات .
ونقل عن نيبور الذى وصف خطتها ومسحها فكانت ٣٢٥٠
أرتوازاً (مقياس قديم طوله ست أقدام) أى أن استدارتها أقل
من فرسخ ونصف ، قال : وإذا حكمنا على هذا القياس بمقابلتها
بجلب أرى أن دمشق تحتوى على ثمانين ألفاً من السكان
(سكانها اليوم نحو ثلاثمائة ألف عدا الضواحي)

وطلب رولان دورجلس (من كتاب فرنسا المعاصرين) إلى
مولاه وهو يحدد نظره فى مئذنة عيسى المطة على جامع بنى أمية
أن يكتب له عدم التعب وألا تتم له رغبة فى البحث حتى يأتى
على آخر رحلته التى لم يكن يخلو فيها من عجب دائم وحب أخاذ .
وهذا معناه أنه دهش بمناظر دمشق . أما (الأخوان تارو) فقد
صغرا من قدرها وقالوا أن ليس فيها ما تروق مشاهدته كثيراً ،
وقصرا مدهشاتها على ما حبتها به الطبيعة فقط . ومما قالاه : « وهل
الثرثرة الدائمة ، والتقلب فى حدائقها ، وخصب جنانها هى التى

تخفى على الدمشقيين مبلغ الهرم الذى حلّ ببلدهم ؟ فهم يعمون عن انحطاطها وجمالها الذليل ، وما برحوا مع هذا يعتقدون أنه سيعود إليها بهاؤها الذى كان على العهد الأموى . وفى أيام السلطان صلاح الدين ، وهم منذ خمسة قرون يخضعون لحكم الترك على حين هم أشد ذكاء وأكثر مضاء منهم . »

وقال (موريس باريس) إن دمشق عتبة البادية يجتمع بها على الدوام مائة ألف بدوى إلى ثلاثمائة ألف حضرى مسلم ، وفيها حلم قديم ينبعث من تحت ظلال أشجارها على شاطئ التيار السريع . وإن دمشق لتستهوى قلوبنا فترقّ لشيخوختها وفتوتها ، وهى تبدى ما أصابها من حوادث الأيام ، وما لها من سحر خالد ، ضامة بين جوانحها تلك الآكام الجرداء . دمشق موطن من مواطن الفكر ، ومعهد من معاهد الشعر ، وقصر من قصور الروح ، فيها يجتمع الغرب والشرق ، لا يحاول كل منهما أن يصرع صاحبه ، بل يجنح إلى التفاهم معه والامتزاج به . قال : ولقد حدثتني راهبة شريفة من راهباتنا أن الأسر الإسلامية على غاية من الأخلاق العالية ، وأن الإسلام دين يأمر بأمور صالحة .

والغربيون يكتبون حقائق دمشق إذا طال مقامهم فيها ،

ولكن أكثرهم يصرف فيها أياماً أو ساعات محدودة ويطالع على قرائه بكتاب مرتجل . وما أدرى كيف يحكم مؤلف على مثل هذه العاصمة في زورة قصيرة يقضيها فيها ، ولا يجتمع فيها إلا إلى الرجال الرسميين يلقنونه ما يوافق منازعهم ، أو إلى أصحاب الفنادق والتراجمة والأدلاء ، وهؤلاء أيضاً لا يدركون ما يجب أن يعرف من سحر هذه المدينة .

وقال رامبر السويسرى : إن دمشق في نظر سكان البادية ومن ينزل في أطرافها الأربعة التي تصهرها الشمس جنة ذات مياه دافقة ، وظلال وارفة ، وثمار غضة جنية . ولا يشعر المرء بأسف شديد في أى مكان نزل ، كما يشعر إذا رأى قطعة من الأرض بلغت هذا الحد من الجمال ، وكان حظها أن يديرها العثمانيون المعروفة إدارتهم بالجهل والجشع .

سكان دمشق وخصائصهم

من الصعب تحديد المقدار الذي دخل في الدمشقيين من دم الآراميين أو الروم ، أو من دم الأنباط والعرب ، أو من سائر العناصر الأخرى التي تديرّت هذه الحاضرة ، وامتزجت بسكانها الأصليين . ذلك لأن من العادة أن تدخل في الحواضر الكبرى أجناس مختلفة من الخلق في كل دور من أدوار الدول ، وفي كل عصر من عصور التاريخ ، فيتعذر وضع إحصاء لكثرة ما يدخل فيها ويخرج منها في كل عقد ، فما الحال بعشرات من العقود أو عشرات المئات من الأعوام .

اتصلت هجرة العرب قبل الإسلام وبعده إلى هذه الديار اتصالاً لم ينقطع ، وكان من أكبر الحوافز إلى ذلك شؤون اقتصادية وآفات سماوية . وربما جاءت القبيلة برمتها أو أكثرها ، وتفرقت في أحشاء القطر فأصاب حاضرتة قسط غير قليل منها . لا جرم أن الكتلة الأولى من العرب الذين أووا إلى دمشق كانوا من غسان على كثرة ، ومن التنوخيين والسبأيين والنبطيين على قلة . يقول اليعقوبي وكانت دمشق منازل غسان وبطون

من قيس وبها جماعة من قریش . وقال غيره : إذا جرت جبل
 عاملة تريد قصد دمشق وحصص وما يليها فهي ديار غسان من
 آل جفنة وغيرهم . وإلى قيس ويمن يرجع مجموع أصول القبائل
 العربية المهاجرة ، وهم الذين يطلق عليهم اسم العشران جمع عشير .
 كثرت العناصر في الشام على عهد الإسلام فنزل في بعض
 أرجائها جاليات من الفرس وبعدها قبائل التركمان ، نزلوها منذ
 عهد السلجوقيين ، ثم انهال عليها الأكراد والقوقازيون من
 الجراكسة والطاغستانيين والكرج ، ثم الهنود والافغانيون
 والمغاربة والأرمن ، يتكلمون بلغتهم أولاً ويتعلمون لغة البلاد
 حالا . وفي هذا العصر انتشرت الفرنسية والانكليزية وغيرها
 من لغات الغرب ، إلا أن العربية ما زالت تستغرق كل طارئ ،
 وكل غريب نزل دمشق يلقف هو وأولاده هذه اللغة ،
 ويندمج في أهلها فتصير منه البوتقة العربية رجلا عربي اللسان ،
 يصبح بعد بطين عريباً بلسانه وعواطفه .

وانتفع الدمشقيون بهذا الاختلاط ، وكان من تمازج الجنس
 الآري بالسامي خاصة نسل جميل متين فيه أجمل خصائص هذين
 الجنسيتين ، أو الأجناس السائرة التي امتزج دمها بدماء أخرى .

وبهذا الاختلاط كثر الذكاء والمضاء ، وتوفر في أهلها الحزم والعزم ، على ما أشار إلى ذلك الباحثون في طبائعهم .

ورأينا الدماشقة يبدون ويهزلون ، وجدهم جدّ وهزلهم هزل . ورأيناهم وقد جعلوا لبلدهم طابعاً خاصاً في مراقبها ومصانعها ومساكنها ، يكاد لا يجتمع مثله في عاصمة من عواصم الشرق القريب . وكان الدمشقيون على الأيام إذا عانوا التجارة جاءوا في الصف الأول بين تجار الأقطار المجاورة ، وإذا مارسوا الصناعة بذّوا غيرهم وأتقنوا عملهم ، وإذا انقطعوا إلى الزراعة قلبوا وعملوا وغرسوا ، وإذا تولوا الأعمال الإدارية والحربية والدينية كانوا على الأغلب مثلاً صالحاً . وهانحن نرى رجالاً منهم استولوا في عهدنا على التجارة في شرق الأردن وفلسطين ، وكانت امتدت أيديهم إلى قسم عظيم من تجارة بيروت ، كما استولوا على جزء من تجارة مصر ، فنازعوا فيها الروم والإيطالي وغلبوها في بعض الأحيان . ومنهم من أتت لهم من صبرهم ودهوهم ما أعانهم على الاستئثار بقسط من تجارة العراق وإيران . أما في المهاجر فليسوا فيها دون سائر الشاميين ، إلا أن سكان الجبال أصبر على شظف العيش من سكان السهول . ويغلب على التاجر الدمشقي النظام كما يغلب عليه

التدقيق والحرص في الغالب ، لا يُفَرِّط ولا يَفَرِّط ، ويحافظ على شرف توقيعه فيؤدى ما يُفرض عليه أداؤه من دين في حينه . وفي بعض الإضرابات الأخيرة في سبيل الاستقلال وهو إضراب دام خمسين يوماً جملة ما تملكه تاجر واحد عن تأدية ما استحق عليه للمصارف، وحاولت السلطة أن تكره التجار على فتح مخازنهم وحوانيتهم فلما أبوا فتحت هي محال تجارتهم وصرفت منها الحراس وقطعت عنها النور لتحمل أصحاب الأسواق على معاودة أعمالهم متى أوجسوا خيفة من اللصوص على أموالهم ، فما مد أحد يده إلى شيء ، لأن السارقين والطاررين تعاهدوا كما تعاهد المومسات ألا يمارسوا عملهم ما دام الإضراب ، وما شك أحد من الفقراء جوعاً في بلدة كان رزق أكثر سكانها مناط عملهم اليومي ، فقام أهل السعة بإطعام أرباب الفاقة فلم يسمع حس تذر ولا تأفف ، ولم يسجل غير ديب المطالبة الصامته بالحق المسلوب . وهذا مما يستغرب من مدينة عظيمة فيها أصناف من الخلق ، وسكانها مع الضواحي لا يقلون عن نصف مليون من النفوس . والدمشقيون من أكثر العرب حنيناً إلى بلادهم ، إذا اغتربوا وإذا اغتنى الدمشقي قليلاً لا يلبث أن يعود إلى مسقط رأسه .

وفي دمشق قوة التمثيل ، إذا دخل بلاد الترك أو الهند أو فارس أو أرض الأفرنج ، تعلم في الحال لغة البلاد التي نزلها . أما من تعلموا لغة من تلك اللغات الغربية في المدارس فإنهم يتكلمون بها ويكتبونها كأهلها ، وهكذا كان لنا أدباء بالتركية وأدباء بالفرنسية وأدباء بالإنكليزية . ويشبه استعداد الدمشقي في باب إتقان اللغات الأجنبية استعداد أهل بولونيا في أوربا لتلقف اللغات . ومع كثرة إقبال الدمشقيين على الأخذ من مدارس الترك آخر عهدهم ، ليكون منهم قضاة وضباط ورجال إدارة ، حتى ليظنهم من يراهم في عهد العثمانيين الأخير أنهم تتركوا جملة واحدة هم وذريتهم ، فإنهم ما لبثوا في الانقلاب العثماني سنة ١٩٠٨ أن عادوا إلى العناية بلغتهم ، وبدأوا يقلبون أسماء أولادهم ، وكان بعضها تركياً ، إلى أسماء عربية صرفة ، ورجعوا عن مدحت ورفعت وحمدى ورمزى ورشدى وكزیده ونادیده وبا كیزه إلى زهير وعدنان وغسان وزیاد وصفوان وأسامة ومروان وريمه وتميمة ورباب . وينطوى الدمشقي على شيء من حب التقليد ، ويتلقف الأمور الجديدة برحب صدر ، وإن كان في مشخصاته أقرب إلى المحافظين ، ويبعد في الجملة عن الإسفاف ، وينزع إلى

التجمل والاستغناء ، وفيه شيء من عزة النفس والتمجد والكرم ،
وكثيراً ما تراه يتوسع في عمله ويتسع في الإنفاق حب الاستكثار
من المكاسب . وأنت إذا جئت تبحث في نفسه تجده من
العامة أو ممن يقرب منهم ، دعا إلى ما دعا ، وعنى بما عنى ،
تقليداً لأبيه أو عشيره أو جاره . وفي الغالب أن يكون للرؤساء
الذين يخاطبونه باللسان الذي يفهمه سلطان عليه . ولهذا كانت
دمشق أول بلد طالب بالوحدة العربية بعد الحرب العالمية ،
وأول بلد صبا إلى الجامعة الإسلامية ، وأول بلد ساء تقسيم
الديار الشامية إلى دويلات صغرى ، وسعى جهده لضم الشمل
بعد انبثاته . وإذا وقع حيف على العراق أو على فلسطين بكت
دمشق أول الباكين ، وعاونتهما ما استطاعت في تخفيف النكبة ،
وإذا أصاب المصري والحجازي شيء من الخير فرحت كأنه لها .
وفي دمشق خصائص القرى وخصائص المدن ، وبيننا تراها راقدة
كقرية آمنة إذا بهاتهب هبة آنية لمطلب تريده وهي تراه حسناً ،
وأنت إذا أنعمت النظر في الأمر وقلبت الرأي في ثورتها تشهد
أنها ابنة ساعتها ، ولكنها كانت تتخمر زمناً في صدور العقلاء
من بنينا ، وما ظهروا بما ظهروا إلا عند الضرورة الشديدة .

والدمشقي يعطف منذ القديم على الغريب حتى يكاد يفرط
 فيما تقتضيه واجبات الضيافة والمجاملة ، هكذا علمه بنو أمية
 على ما يظهر يوم كانت دمشق لا عاصمة الإسلام بل عاصمة
 الدنيا . والدمشقي يحنو على الفقراء ويكثر برّهم ، ولا سيما في
 الأعياد والمواسم والمآتم ، وما زال منذ خمس وعشرين سنة
 يعاضد الجمعيات الخيرية التي ألفها فريق من أهل الخير والحمة ،
 تعول الفقراء وتعلم اليتامى والأُميين من الشباب . وقد قام المحسنون
 من تجارهم في هذا العام بمشروع المؤاساة فتبرعوا له بمبالغ عظيمة
 وسينشئون بما جمعوا مستشفى عظيماً وداراً للعجزة .

ومن طبع الدمشقي ألا يؤخذ بالعنف وهو يلين حتى مع خصمه
 ويهش في وجه من يكرهه . فكما أنه يحسن معاملة كل إنسان على
 اختلاف الدين واللسان ، يحب أن يعامل على هذه الصورة ، فإذا
 لم يلق مثل هذا من مخاطبه وعشيرته وشريكه ينفر منه في باطنه ،
 ولا يظهر له عداوة ولا خصومة على الأغلب لأنه اشتهر برقة الحاشية
 واللفظ والأدب ، مثله في ذلك مثل ابن القاهرة لعهدنا ، وعلى
 منوال هذا ينسج الدمشقي فيما ينقصه من مقومات الحياة العصرية .
 ودمشق والقاهرة تتشابهان كثيراً . ولو كان لدمشق من ينظم شؤونها

تنظيماً فنياً ويحمل جميع طبقاتها على مراعاة القوانين — وحبُّ القانون يقلُّ في أبنائها كما يكثر فيها العطف على المسىء يوم تحق عليه العقوبة — لجاء من مدينتهم أجمل مثال في العواصم العالمية . واشتهر النساء الدمشقيات بجمال طلعتن، وحسن هندامهن ، ورقيق لهجتن ، وهن في الإجمال ربات بيوت ، ومربيات أولاد ، عُرفن بصبرهن وجرأتهن على الاغتراب ، وإذا اغتربت الدمشقية كوَّنت لها بيئة خاصة ، كأن تؤلف من بنات بلدها مجتمعاً ، وتطبع البيت الذي تدخله بطابعها من النظافة وحسن الإدارة والاقتصاد على الأكثر ، ومنهن أوانس وعقائل رحلن إلى القاصية وما نزلن عن مشيخصاتهن بعد طويل الاغتراب ، ولا نسين أهلهن وديارهن ، ويزداد عطف الدمشقي على الدمشقي والدمشقية على الدمشقية كلما تناءت الديار التي صاروا إليها .

وإن الزى الذى تتزيا به المرأة الدمشقية ليسرى إلى نساء القطر على أسرع وجه ويحظى بالقبول عندهن بدون مناقشة . وذلك لأن الدمشقيات كن يسارعن إلى النقل عن المرأة التركية وأمسين اليوم يقلدن المرأة المصرية ، يأخذن عن المرأة الغربية مباشرة ، فيخرجن الزى الجديد كأنه من اختراعهن وبنات

أفكارهن . وما تخترعه دمشق في هذا المعنى تقبل عليه النفوس ، كما يقبل الغرباء على التزوج من الدمشقيات لصفات فيهن قد لا توجد في غيرهن . وحجاب النساء يضعف مع الزمن والسافرات فيهن قليلات إلى اليوم ، وما سفر منهن إلا المتعلمات من أهل الطبقة العليا والوسطى على الأكثر .

وعلى ذكر الأزياء لابد من الإشارة إلى أن الدمشقيين اقتبسوا الزي الغربي جميعاً ، والطربوش لباس الرأس عندهم كالمصريين ، والقبعة مستعملة على قلة ، ويقلُّ لبس العمامة والعقال والكوفية سنة عن سنة في دمشق وغطتها . وقد قلّت الغربيين في معظم مرافق حياتها وفرش بيوتها وتلقفت مصطلحات أهل الحضارة . أما عادات الدمشقيين فهي خليط من العادات العربية القديمة والغربية الحديثة ويدخلها التعديل على مر السنين ، وكثرة اختلاط الدمشقيين بالأمم الأخرى . ومن عاداتهم كسائر بلاد الشرق الجيد النافع ومنها القبيح الضار ، والقبيح يزول بالتدريج . والاحتفال بالأفراح والأتراح صائر حتماً إلى الاقتصاد ، وقد كانت من قبل إلى الإسراف والبذخ ، ويراعى الدمشقي الحالة الاقتصادية على كل حال ، ينام إذا أكسدت سوقه وينتبه إذا نفقت .

الحياة الأدبية والفنية والصناعية

العلم والأدب في دمشق

ليس في الإمكان استقصاء أسماء جميع من نبغوا في دمشق قبل الاسلام بالعلوم والفنون . وقد عرفنا منهم بولودرا المهندس الدمشقي الذي أقام عمود تراجان في رومية وبنى جسراً على نهر الدانوب (الطونة) . ومنهم بوسانياس عالم المؤرخين في عصره ، والقديس يوحنا فم الذهب الدمشقي رجل البلاغة والوعظ ، وإليه نسبت الكنيسة العظمى التي أصبحت في الاسلام الجامع الأموي فيما روى بعضهم . ويقول سينيوبوس في تاريخ الحضارة : « حفظت في مدارس الروم في دمشق والاسكندرية علوم اليونان من فلك وجغرافيا ورياضيات وطب » . أما نحن فمن المتعذر علينا أن نشير فقط إلى النوابع منهم في هذه الفنون ، فمن الأخبار ما لم يدون ومنها مادون وضاع ، وتاريخ هذه الديار قبل الاسلام يصعب تمحيصه . ولم يكن السريان أصحاب البلاد دون الرومان واليونان في الرغبة في العلم ، وكانوا منذ انتشرت النصرانية يجعلون من أديارهم بيوت علم وحكمة ، وكانت آداب

السريانية تدرس بعناية منذ القرن الخامس . واشتهر اليعاقبة والنساطرة بالعلم ، وكان علماء النساطرة أكثر عدداً ، واليعاقبة أكثر رسوخاً وتبحراً . وجميع الشعوب التي تداولت حكم هذه المدينة كانت لها يد باسطة في العلوم المعروفة لعهداها .

وفي الجاهلية أى قبيل الاسلام كان يختلف إلى دمشق رجال من شعراء العرب فينزلون على الرحب والسعة على أمراء الغساسنة وغيرهم من العرب ، ومنهم حسان بن ثابت شاعر الرسول نزل في الجاهلية على جيلة بن الأيهم ملك غسان فأكرم وفادته ، ذلك لأن جيلة كان أيضاً شاعراً مجيداً وكذلك بعض أهل بيته ، ومنهم امرؤ القيس والمتلمس ، ونزل في الاسلام بعض الصحابة والتابعين وآل البيت في دمشق وتديروها ، وشغلت طائفة منهم بهداية الخلق والقضاء بينهم ، وهم الذين وضعوا أساس العلم العربى في هذه الأرض . وكثر العلم في زمان أمير المؤمنين معاوية فأصبحت دار قرآن وحديث وفقه . كان يأتى بالعلماء من القاصية فينزلون دمشق ، ومن دعاهم إليها أمد بن أبد وعبيد بن شربة الجرهمى ، وطلب إليهما أن يحدثاه بأخبار القدماء ، وأمر بعض كتابه أن يدونا كلامهما ، فكان

أول تاريخ وضع في الاسلام . ومعاوية أول من وضع الكتاب والكتب لتعليم كلام العرب ، وأول من أنشأ بيت الحكمة . وانتشر العلم على عهد عبد الملك بن مروان ، وكان من أوعية العلم ومن بلغاء العرب كسائر أهل بيته ، وكان متسعاً في المعرفة والتصرف في فنون العلم والفصاحة ، وكان « سنان قريش وسيفها رأياً وحزماً وعابدها قبل أن يستخلف ورعاً وزهداً » وهو الذي نقل الدواوين إلى العربية وكانت بالرومية في الشام و بالقبطية في مصر و بالفارسية بالعراق ، وهو أول من أحدث ضرب الدنانير والدرهم في الاسلام .

وشعراء هذا القرن في دمشق من أصل عربي ، ومنهم من كان يفد على بني أمية ويرحل بعد مدة . ومن الشعراء الأخطل ونابغة بني شيبان . ومن العلماء أبو الدرداء القاضي ، وهشام بن إسماعيل أول من أحدث رواية القرآن بدمشق ، وأبو إدريس الخولاني وبشر بن الوليد الأموي كان يقال له عالم بني مروان ، « وكان خالد بن يزيد بن معاوية خطيباً شاعراً وفصيحاً جامعاً وجيد الرأي كثير الأدب ، وكان أول من ترجم كتب النجوم والطب والكيمياء » ولقبوه بحكيم آل مروان

وعالم قریش . وهو الذى زهد فى الخلافة وعشق العلم (وأمر
 باحضار جماعة من فلاسفة اليونانيين ممن كان ينزل مصر وقد
 تفصح بالعربية ، وأمرهم بنقل الكتب إلى الصنعة من اللسان
 اليونانى والقبطى إلى العربى) وهو أول من أنشأ خزانة كتب
 فى الإسلام ، والأرجح أنها كانت فى دمشق . وأمر عمر
 ابن عبد العزيز بنقل كتاب أهرن بن أعين فى الطب إلى العربية ،
 وكان فيها روح بن زنباع ورجاء بن حيوة من رجال العلم
 والسياسة ، وغيلان بن مروان أول من قال بالقدر ، ومن علمائهم
 فى القرن الثانى والثالث مكحول وعبد الله بن عامر أحد القراء
 السبعة ويحيى بن يحيى الغسانى ويحيى بن الحرث الزياىدى المقرى ،
 وعليه دارت قراءة الشاميين ، والوليد بن مسلم وصعصعة بن سلام
 كان أول من أدخل علم الحديث إلى الأندلس ومحمد بن الوليد
 الزبيدى . وأبو الحكم وابن أثال وعيسى بن حكم وتياذوق ،
 وهؤلاء الأربعة أطباء . ونشأ مثلهم من النقلة فانتقلوا فى القرن
 الثانى إلى العراق وهناك ظهرت خدمتهم للعلم واللغة العربية .
 وواضع أساس الكتابة العربية عبد الحميد بن يحيى الكاتب
 وعشرات كانوا على طريقته فى الكتابة .

وقام في القرن الثالث والرابع والخامس أمثال هشام بن عمار
خطيب دمشق وقاريها وفقهها ومحدثها وأبو مسهر عبد الأعلى
الغساني وأبو زرعة الدمشقي ومحمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة .
وعمر بن حسن الخرقى وعبد الله بن عطية المقرئ الدمشقي المفسر
كان يحفظ خمسين ألف بيت من شعر العرب في الاستشهادات
على معاني القرآن واللغة ، ومحمد القيسراني المهندس وأبو يعلى
التميمي المعروف بابن القلانسي المؤرخ وعلى بن داود الداراني
الخطيب .

وجاء في القرن السادس والسابع والثامن أيضاً رجال في علوم الدنيا
والدين خلدوا لهم ذكراً مؤبداً . وكان في دمشق أيام صلاح الدين
ستمائة فقيه يعطيهم من صدقاته . ومن الأطباء والمهندسين يحيى
البياس ومحمد بن أبي الحكم وابن النقاش وابن البذوخ وابن المطران
وعبد الكريم الحارثي المهندس وعلى بن غانم والحافظ بن عساكر
محدث الشام ومؤرخها صاحب التاريخ المشهور والحسين الأسدي
مسند دمشق وابن الخياط وطراد بن علي وابن منير وابن عُنَيْن
والأواء وعرقلة (حسان بن نمير) وابن نمير العقيلي ، وهؤلاء من
كبار الشعراء . ومن المهندسين إبراهيم بن غنّام ، ومن المؤرخين

بن خلكان وابن أبي أصيبعة وأبو شامة وسبط ابن الجوزي ،
ومن العلماء المفنين عبد المنعم الجلياني وعز الدين الإربلي
وشمس الدين الخوي ورفيع الدين الجلي وشرف الدين الرحبي
والدخوار واللبودي صاحب دار الهندسة وعلى بن أبي الحزم
وابن النفيس وابن المؤيد العرُضي والدولعي الخطيب وابن الساعاتي
الشاعر وفتيان الشاغوري الشاعر والحافظ الزملكاني والحافظ
اليلداني. ونبغ كثير من المحدثات الدمشقيات ضاهين بعلو السماع
الرجال ، ومنهن من جعن إلى الحديث علم الأدب وقرض الشعر .
وكان في القرن الأخير المصلح شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه
ابن قيم الجوزية والحافظ البرزالي والحافظ المزى والحافظ الذهبي .
وجاء رجال برزوا في التاريخ والعلوم الفلكية والرياضية والطبيعية
مثل ابن كثير وابن فضل الله العمري والصلاح الصفدي وشيخ
الربوة وابن مفلح وابن شاكر وابن الشاطر الفلكي ومحمد بن إبراهيم
المهندس والخطيب جلال الدين القزويني وسليمان بن داود الطبيب
وبدأت طلائع الانحطاط في العلم والأدب في القرن التاسع
وما بعده ، ومع هذا ما خلت دمشق في دور من الأدوار من
أعلام يشار إليهم بالبنان في جميع العلوم الدينية ومعظم العلوم

الأدبية والمدنية . ومن المشهورين ابن قاضي شهبه والحسباني وابن عرب شاه ويوسف بن عبد الهادي وهؤلاء اشتهروا بالتاريخ وإبراهيم البقاعي وأحمد الطولوني المهندس وابن الجزري المقيري والبدر الغزي المؤرخ ومحمد بن علي بن طولون المؤرخ وعائشة الباعونية المحدثه الشاعرة صاحبة التأليف والنجم الغزي المؤرخ وأحمد بن سنان القرمانى المؤرخ والحسن البوريني وابن الشاهيني والصفوري وابن الحكيم صاحب والشاعران المنجكي والكيواني وحامد العمادي وأحمد المنيني والحبي والمرادي وعبد الغنى النابلسي وكمال الدين الغزي ومحمد العطار صاحب الرسائل بالفنون الحربية والفلك والرياضيات ومحمد عابدين صاحب الحاشية في الفقه وعبد الغنى الميداني الفقيه النظار ومحمد الطنطاوي وميخائيل مشاقة ومحمود الحمزاوي وطاهر الجزائري ورفيق العظم وجمال الدين القاسمي وعبد الرحمن شهبندر وتوفيق طارق المصور المهندس وغيرهم وهبت دمشق بعد انتشار القانون العثماني سنة ١٩٠٨ وتمتع العناصر العثمانية بحرياتهم ، تريد أن تستعيد بالعلم سالف مكانتها وتستمر في تخريج رجال ممتازين على ما كانت في سابق العصور ، فتعلم مئات من أبنائها العلوم العالية في ديار الغرب

ولا سيما في فرنسا ، فجاء منهم نوابغ في الطب والحقوق والتعليم والهندسة والزراعة والكيمياء وغير ذلك ، ومنهم من وضعوا الرسائل والكتب التي لا تقل عن كتب المصريين المحدثين ، وأما العلوم الدينية فأرادوا إحياءها فأسسوا بأنفسهم عدة مدارس تعلمها على الطرق الحديثة في الجملة ، ويرحل طلاب الاختصاص إلى القاهرة يتلقون في الأزهر ودار العلوم والجامعة ما ينقصهم من علوم الدين وغيرها . وفي أحيائنا طائفة كبيرة من الرجال الذين تعلموا وعلموا في مختلف العلوم والفنون والصناعات حتى قال هريو : « لقد أصبحت دمشق بفضل همة علمائنا (علماء فرنسا) مركزاً علمياً من الطراز الأول بمكانتها » .

والتعليم في دمشق منتشر كثيراً ويقل فيها الأميون وفيها مدارس مختلفة الدرجات وجامعتها السورية هي الجامعة الوحيدة في العالم التي تدرس الطب باللغة العربية . وقد رسخت العربية خطابة وكتابة وشعراً في العهد الأخير رسوخاً لا عهد لها بمثله منذ أجيال ، والفضل في ذلك للمدارس والجوامع والمعابد والصحف ولرخص الكتب والمجلات

الفنونه الجميلة

نشأت الفنون الجميلة بدمشق في زمن يصعب تعيينه ، وكانت الأمم التي استولت زمناً طويلاً على هذه العاصمة كاليونان والرومان من أقدم الأمم التي أتتها بموسيقاها ، ولما انتشرت النصرانية في القرن الثالث للميلاد عني منتحلوها بالموسيقى في كنائسهم عناية اليهود بها من قبل في بيعهم . وكانت موسيقى العرب لأول أمرهم إلى السذاجة شأنهم في معظم أوضاعهم ، فلما جاءوا هذه العاصمة أخذوا من موسيقى الروم ومن موسيقى الفرس وتوسعوا وأجادوا حتى قال بعضهم : ولم تكن أمة من الأمم بعد فارس والروم أولع بالملاهي والطرب من العرب .

والغناء العربي في دمشق قديم منذ كانت غسان وتنوخ فيها ، وكان غناؤهم الإنشاد والترنيم والحداء . وكان التقليس وهو الضرب بالدف والغناء بما يعمد إليه في استقبال الولاة عند قدومهم المصير . وحدثنا التاريخ أن بعض خلفاء بني أمية وأمراءهم وساداتهم في دمشق وضعوا ألحاناً وأولعوا بالموسيقى والغناء ، ومنهم عمر بن عبد العزيز فإنه دُونت له صنعة في الغناء أيام إمارته على الحجاز وكان أحسن خلق الله صوتاً ، ومنهم يزيد بن

عبد الملك والوليد بن يزيد ، وما زالت الموسيقى والغناء ينتشران
والدمشقيون يزدادون غراماً بهما كلما ارتاحوا وارتاشوا ، وكان لهم
في كل قرن أناس مشهورون ممتازون ولكن التاريخ أغفل نقل
أخبار هذه الطوائف من الناس . ذكروا أنهم تفننوا كثيراً في
الإيقاع والآلات ومنهم من عمل أرغناً ، وهو غير الذي عرفه
الإفرنج ، يعمل من ثلاثة زقاق كبار من جلود الجواميس
يضم بعضها إلى بعض . وفي القرن السادس كثر الموسيقيون
والطنبوريون والقانونيون وظهر نوابغ في هذا الفن . وفي القرن
الثامن نبغت غير واحدة من المغنيات ، وما خلت هذه المدينة من
عوادة وطنبورية وكراعة وربابية وصناجة ورقاصة . وكان الخلفاء
والعظماء يتنافسون فيهن ويفضّلون عليهن وعلى كل صاحب معرفة
بهذا الصنف . ومن الرجال والنساء من كانوا يمارسون هذه
الصناعة للتكسب وهم المحترفون ، ومنهم من يولع بها حباً بها وهم
الهواة .

وأدركنا الدمشقيين لا تخلو سهرة من سهراتهم ولا نزهة من
نزهاتهم ولا فرح من أفراحهم من موسيقيين ومغنين وأحياناً
مغنيات ، وما كان بعض أرباب المظاهر يستنكفون من رفع

أصواتهم بالإنشاد والغناء ولا من الضرب على العود والطنبور والقيثارة . وفي العهد الأخير اقتبست الموسيقى فنوناً من الموسيقى الغربية ، وكادت دمشق في موسيقاها وغنائها تكون عالة على مصر تقتدى بها ، ومع ذلك بقيت لها بقايا خاصة بها . وما برج للموسيقى والإنشاد عند بعض أرباب الطرق شأن عظيم كشأنهما منذ القديم وإلى اليوم في الكنائس والبيع عند أهل النصرانية جميعاً .

أما فن التصوير فالعرب كانوا فيه عالة على الروم والرومان ، والإسلام لأول أمره شدد في التصوير ، ولما ذهبت الخشية من عبادة الصور أخذ التصوير ينتشر في البلاد الإسلامية ، وقد صنعت الصور في دار مروان بن الحكم وسعيد بن العاص وكل منهما ولي إمارة المدينة وكانا من التابعين ، مما دل على أن التصوير كان شائعاً منذ عصر الصحابة ، وكان للخلفاء في قصورهم صور وتماثيل ، ولم يحظروا باديء بدء إلا تجسيم الصور الآدمية ، وعمدوا إلى التصوير في الكتب والثياب والجدر بكل ما يغري ويفتن ، وكانوا على كل حال مقلين من صور الآدميين ، وقد ظهر في مصر في عهد الأيوبيين والمماليك مصورون شاميون أبدعوا في التصوير على

الجدران وعلى الكتب . وكان من الحمامات المصورة بدمشق حمام
سيف الدين وصفه عمر بن مسعود الحلبي المعروف بالحار بقوله :

وخطّ فيها كل شخص إذا لا حظته تحسب به ينطق
ومثل الأشجار في لونها ولينها لو أنها تورق
أطيّارها من فوق أغصانها بدها تنطق أو ترعق
وهيبة الملك وسلطانه وجيشه من حوله يحدق
هذا بسيف وله عبسة وذا بقوس وبه يعلق

ولله حار أيضاً في تمثال من النحاس على صورة شخص يخرج
الماء من أعضائه ، وكان على الأرجح في بعض دور دمشق :

وشخص على ساقه قائم مشير بساعده الأيمن
له صورة حسنت منظرًا على بدن صيغ من معدن
يكاد يحدث جلّاسه ولكن به خرس الألكن
إذا بث من صدره سرّه فتسبّقه أدمع الأعين
ولم يبك حزنًا على نازح ولم يصب شوقًا إلى موطن
صبور على الحر والبرد لم يسرّ بحال ولم يحزن

وجاءت العصور الحديثة فكثرت النقاشون والمصورون ،
ومنهم المصورون على الخزف ، تجددت نماذجهم من أعمالهم بدار
الآثار العربية بمصر . ومن النقاشين من ينقش على المعادن
كالذهب والفضة والنحاس ، ومنهم من ينقشون المنازل ويعرفون
بالدهانين .

وعدوا الرقص من الفنون الجميلة ، وقد ارتقى منذ عرف تاريخ
العرب إلى أن فتحوا الأندلس ونقلوا إليها رقصهم الذي لا يزال
إلى اليوم شائعاً فيها بعد خروجهم منها قبل خمسة قرون ، وكذلك
الموسيقى الإسبانية ، يرقصون بالصنجات كما كان يرقص الراقصات
في دمشق ، وكان لهم في الشام رقص يسمونه السماع يرقصه عدة
أشخاص على نغمات متساوقة من الأوتار وترديد جميل من
الموشحات فقط ، وهو أشبه بالأوبرا أو الأوبريت عند الأفرنج
أي القصائد الملحنة التي تمثل على نغمات الموسيقى ، ويزيد رقص
السماع على الأوبرا كونه ترفع فيه الأصوات بأنغام مألوفة ، وقال
بعض العازفين إن رقص السماع هو الذي يعرفه الأفرنج بالباليه
ونبع في دمشق في القرن الماضي سنة ١٢٨٢ هـ رجل من أبنائها
البارعين في الموسيقى والغناء ونظم الشعر ، وهو أبو خليل أحمد القباني ،

فأنشأ قاعة للتمثيل حازت القبول عند العارفين ، ثم اضطهدته الحكومة بإغلاق محله ، فانتقل بفرقته إلى مصر ووضع هناك أيضاً أساس التمثيل العربي الذي كان وضعه في دمشق على غير مثال احتذاه . ومن تأليفه روايات إلى اليوم تمثل في دور التمثيل وتجد لها قبولاً من نفوس المشاهدين . وكان لرقص السماع في رواياته التمثيلية قسط عظيم من العناية . وحاول كثيرون من أربعين سنة تأليف فرقة للتمثيل فأخفقوا مع أنه خرج من دمشق عدة ممثلين بارعين تفرقوا في أرجاء مصر والشام .

صناعات دمشق

عُرفت دمشق في معظم عصورها بأنها مدينة صناعية ، كما هي مدينة زراعية تجارية . ويرجع توفيقها في صناعاتها إلى وفرة المواد الأولية المستخرجة من أرضها ، وإلى أن كل صنعة يتسلسل العمل بها في بيوت مخصوصة على الأغلب . فالصوف والقطن والكتان والقنب والحرير والوبر والمرعزي تنسج منه بزّاتها وديباجها وأطلسها وأعبثتها وأغطيتها ، والحديد والفولاذ والنحاس تصنع منه نحاسها وآلاتها وقربها ، ومن أخشابها تصنع مقاعدها

ومناضدها وأصوتها ومرافق بيوتها وقاعاتها ، ومن تربتها تعمل زجاجها وآنيتها وقاشانها وآجرها . وهكذا في كل ما تنبت الأرض ، ويدفن في بطنها من المعادن . قال الإدريسي : ولكل بلد ومدينة خاصية تحتفظ بها في نوع من الصناعة ، وأهم ما كان منها في مدينة دمشق .

كانت هذه المدينة في القرن الرابع الهجري جامعة لضروب من المحاسن وصنوف من الصناعات ، وأنواع من الثياب الحرير كالخز والديباج النفيس الثمين العجيب الصنعة ، يحمل منها إلى كل بلد ، ومصانعها في كل ذلك عجيبة ، وقد احتوت طرزها على أقانين من أعمال الثياب النفيسة ، ومحاسن جمّة فلا يعادلها جنس ولا يقاومها مثال . وقيل إن اسم الدمقس مشتق من اسم مدينة دمشق ، وإن الثياب التي يسمونها (داماسكو) وتصنع برسوم في جسم الثوب معمولة غليظة تنسب إلى دمشق . وكان الغزل والنسج مما يعانيه جمهور الناس في الحاضرة والضاحية حتى شهدهم بالبراعة في ذلك . ولكل قرية ولكل مدينة اختصاص بصنع شيء تُعرف به ويعرف بها وينفق ما يحاك من ذلك في بلاد الشام ، وما زاد يصدر إلى الخارج .

قام في القرن الماضي والقرن الحالى أناس ممن يعانون صنع الثياب والنسيج من القطن والصوف والحرير فوقفوا بما اخترعوا من الأنوال في وجه الثياب المصنوعة في الغرب ، وعملوا « الديما » و « الألاجة » و « الشال » . وما برحت الصناعات الشامية على كثرة منافسة البضائع الأجنبية لها رائجة لمتانتها وجمالها ، وثبات ألوانها ، ورخص أسعارها ، فان ما يعمل في دمشق وضاحيتها من الشال والأطلس والأعبئة والملاءات والسجوف والشفوف والقطيفة الخمل ، ما هو زينة القصور وربات الخدور . ومن ذلك معامل كثيرة في هذه المدينة . وأنشئ فيها معاملان لصنع الجوخ ، لا تقل جودة مصنوعاتها عما يصنع من نوعه في معامل الغرب . وتوفرت الأنوال لصنع البسط والطنافس ، تروج مصنوعاتها لرخص أسعارها . وكانت صناعة زركشة القصب رائجة إلى القرن الأخير ، وهي مما كانت دمشق تختص به .

وخصت أيضاً بدبغ الجلد تعمل منه الأحذية والسروج والروايا والزُّكرات والصناديق وما شاكل ذلك وهي جميلة ورخيصة . وأسس مؤخراً معمل عظيم لدبغها أخذ يخرج الجلد الجيد الذى يباع ويروج في الشرق والغرب .

واشتهرت دمشق بالنجارة منذ الزمن الأطول ، وما زال أهلها يتفنون فيها ويماشون الزمن في نشوئها ، ينبجرون الأبواب والدرفات والنوافذ وأصونة الثياب وخزائن الزينة والمناضد والكرامى والمقاعد والأرائك والمكاتب والاطارات والمغاسل والصناديق والتوابيت والرحال وألواح درس الحبوب وأعواد الطرب . تعمل من خشب الجوز والزيتون والليمون والميس والعَرَّعَر والدردار والشربين والتنوب والسرو والصَّنوبر مما يكثر في الأرض الشامية ، أو من خشب الجوز الأميركالى والخشب الرومانى والقبليقي وغيرها من الأخشاب الجلوبة .

كان يعمل كل ذلك بأدوات بسيطة تحركها الأيدي ، وقد أقيمت معامل لنشر الأخشاب وتقطيعها وتجفيفها وتليينها وتزيينها ورصفها ونقشها . ومما يدل على متانة خشب الحور المعروف بالرومى تلك النماذجات التى بقيت منه محفوظة من القرن الخامس فى دار الآثار ، وكانت الصناديق تصنع إلى القرن الماضى من خشب الجوز فتقوى على القرون ، وتحفر فيها نقوش وصور جميلة ، ومن قبل كانت صناديق السرو مثال الصناعة المتينة ، ومن الخشب المتين كانت تعمل الحلقات فى القصور

والقاعات القديمة . وقد بيع كثير من هذه الصناديق وهذه الحلقات من الغرباء وهم يعدونها من أطرف الطرائف ، لما خست به من المتانة والجمال . وسر الإبداع في هذه الصناعة أن النجارين كانوا ينجرون أصلب الخشب ، فأصبحوا اليوم يعتمدون على الكريش والشوح ، وفيهما مواد قطرانية وتعمل فيما يصنع منها الرطوبة والحرارة ، وهذا الخشب سهل على النجر وسريع إلى البلى .

وكان الدهان من الصناعات الدمشقية المتفردة بها هذه المدينة ويكون ذا ألوان ثابتة لا تنصل بالحرارة ولا بالبرودة ، ولا ينال منها السوس ولا الحشرات . والدهان المعروف اليوم بالعجمي مما تفردت به دمشق . وأهل هذه الحرفة يزینون بما يدهنون اليوم قصور العظماء في الشام ومصر والعراق ويعملون منها مناضد ومقاعد وبعض أدوات الزينة ، فتجىء طُرُقة من الطرف . وأزهرت صناعة التنزيل في خشب الخزائن والأصونة والمقاعد والكراسى بالصَّدَف أو بقطع الليمون ، وكانت مصنوعاتهما تزدان بها الأندية والردهات وتباع منها مقادير عظيمة في أميركا وغيرها . ويقال لصناعة الحفر والتنزيل (الأبلق) وهي من

أجمل الصناعات أيضاً ، تدهن الحجر بالنقوش والأشكال ويحفر ويدهن بصب الأصباغ في الشقوق ، ثم يجلى ويصقل ، فيأتي صبغها براقاً ثابتاً كأنه من أصل الحجر . وكانت الأصباغ القديمة في الجدران والأبهاء ثابتة ذات بهاء ولمعان ، وهي من نباتات البلاد وموادها ، فلما نازعتها الأصباغ الأفرنجية الرخيصة التي تنصل بسرعة ، بطل استعمال الأصباغ القديمة ، وكاد يفقد سرها ويندمج في صناعة التنزيل صناعة النقش بالجبس على الجدران . ومنها نموذجات صبرت على حوادث الدهر .

لما حرق الجامع الأموي حريقه الأخير ، أخذ العارفون يفكرون في إرجاعه إلى زوته السابق ، فأحييت صناعات دقيقة في النقش والحفر والترخيم كادت تضيع ، ومحراب جامع بني أمية مثال ظاهر منها . واخترع إذ ذاك أحد أرباب الصناعات مرّ كبة تجرها بضعة ثيران ، فتنقل الأعمدة والسوارى من مقالعها مهما عظمت على أيسر وجه . والحاجة أم الاختراع .

ومن القديم كانت دمشق تفاخر بما تصنع من السيوف المحلاة لما اختصت به من الصفاء والاختضار ، تكتب فيها آيات وأشعار بماء الذهب ، ومثل ذلك الخناجر والرماح . وتطريق الحديد

مما عرفت به دمشق قبل الإسلام ، وما زالت صناعته متوارثة في بيوت معروفة إلى اليوم . وذكر التاريخ أن الأمبراطور ديوقلسيانوس الروماني أنشأ في دمشق في القرن الثالث للميلاد معملًا للأسلحة ، فاستدل من ذلك أن المستخرج من حديد هذه الديار كان كثيراً يفي بحاجة الدولة والأمة . والقيانة أو القرذحة أى صنع السلاح ، مما كانت له أسواق رائجة ، عرف الصليبيون ذلك ونسبوها في عهدهم إلى دمشق ، وكان العرب نقلوا هذه الصناعة إلى صناعة صقل السيوف إلى الأندلس ، فنسبت إلى دمشق حتى يوم الناس هذا ، ويقال لها بلغات الأفرنج إلى اليوم (دامسكيناج) و (داماسكينري) أى تنزيل الذهب والفضة في الفولاذ . وكانت الدروع والخوذ والسابرية تصنع في دمشق حتى لكانها كانت معملًا عظيمًا من معامل السلاح على الطريقة التي وصلت إليها أدوات القتل والتوقي منه في تلك الأعصر . وتفنن صناع هذا تفننًا شوهده أثره في صنع القذائف والنسافات . فقد ذكر المؤرخون أن الصليبيين يوم عكا اصطنعوا ثلاثة أبراج من خشب وحديد وألبسوها الجلود المسقاة بالخل ، وجعلوها على عجل يسع الواحد منها من المقاتلة ما يزيد على خمسمائة نفر ويتسع

سطحه لأن ينصب عليه منجنيق ، فأراد صلاح الدين إحراقها
 وجمع الصناع من الزرايين والنفاطين ، وكان من جملة من حضر
 شاب نحاس دمشقي ، فذكر أن له صناعة في إحراقها وأنه إذا
 حصل له الأدوية التي يعرفها ، وطبخها مع النفط في قدور من
 النحاس وقذف بها الأبراج تحترق لساعتها وكذلك كان

وما برح كل ما يصنع من الحديد يعمل في معامل دمشق
 كالمردان والمغازل والصنارات والأسياخ والعقاقات والقيود والزرد
 والمباضع والمبازع والمشارط والآنية والنعال والمسامير والمعاول
 والمساحي والمناجل والمطارق والأقفال والمفاتيح والمغالق والمناصب
 والملاقط والسكاكين والمدى والمناشير والمراكن والمراجل والدلاء
 والبراميل والمقالى والمواسى والمبارد والصناعات والدرابزون
 والكلايب واللواب والقدوم والفؤوس والمقاريض . وفي العهد
 الحديث أدوات المركبات والعجلات والسيارات والدراجات
 والمضخات والمدفئات والسكك والمحاريث والآبار الارتوازية
 وغيرها ، والاعتماد فيها كلها على الحديد المستبضع من الغرب .
 وكان أرباب الصناعات في القديم يحجزهم ما يستخرج من
 حديد البلاد

ومن النحاس تعمل أواني البيوت كالقدور والمغارف والأطباق والمناقل والدلات (أوعية القهوة) والطسوت والصواني والصحون والصحاف والمصافي والملاعق والسطول والمساخن والهواوين والمدقات وغير ذلك . وقد أشئت أوائل هذا القرن معامل لصنع أواني النحاس المكتّبة والمعرق ، ومنها الزهريات والمصابيح والثريات والتعليق والكؤوس والمباخر والقيام والصحاف والبواطى وبعض أدوات الزينة ، فراجت رواجاً عظيماً في الممالك الأجنبية ، وتنافس أرباب الذوق في اقتنائها ، ومنها ما يعمل بالميناء ، ومنها ما يعمل بالفضة وهي على غاية الإبداع .

واشتهرت هذه العاصمة قديماً بالزجاج (صناعة الزجاج) ، وكان يضرب المثل بصفائه ، يتخذ للزخرفة والزينة ، ومنه الأكواب والآنية على اختلاف ضروبها ، والأباريق والجلمات والسكرجات والمضخات والأقداح والقوارير والكيزان والبواطى ، كانت لها معامل مهمة في دمشق . وفي الحرب الأخيرة أخذت معامل الزجاج تصنع الكؤوس والفناجين وزجاجات المصابيح وصراحيات الماء وغيرها ، وراجت رواجاً كثيراً واستغنت بما صنعت عن مصنوعات تشيكوسلوفاكيا وغيرها . وكانت معامل

الزجاج ممتدة على طول الجامع الأموي ، رآها الرحالة بوجيبوحي سنة ١٣٤٦ م . ويظهر أن البنادقة توصلوا إلى سر هذه الصناعة في القرون الوسطى وأنشأوا يخرجون أنواع الزجاج ، ومنها المرايا التي بطل عملها بعد ذلك هنا ، ثم أخذ بعضهم بأخرة يقلد المرايا المصنوعة في الغرب فتباع لرخص أثمانها . وزهد أرباب هذه الصناعة في صنعهم ، لما بدأ الغرب يخرج المصنوعات الزجاجية رخيصة الثمن بديعة الشكل ، ومن قبل كانت المصنوعات الزجاجية من عمل البلاد رائجة . وتعلقت الهمم قبل الحرب العالمية بتأسيس معمل للزجاج ، وأخرج مصنوعات جميلة ، وحال الاختلاف بين المساهمين دون سيره ، كما كانت اتجهت النية إلى تأسيس معمل للسكر فحال رخص أثمانه دون المضي في إنشاء معمل لاستخراجه .

كان يعمل من الخزف القلل والخوابي والاجانات والدوارق وأصاصي الزهور وغيرها . ويعمل القاشاني لرصف الجدران والمحاريب والحمامات والفساقي والسلسبيلات والباذهنجات والقائم والزهریات وغير ذلك . ويظهر أن سر صناعة القاشاني فقدت من دمشق منذ قرنين بانقراض البيت الذي كان مستاثراً

بصنعه . وفي القرن الأخير نشأت صناعة جديدة كأنها أخت القاشاني القديم . وهي الخرز الملون يتخذون منه بلاطاً للدور والغرف والمستحبات ، وقد تفننوا في صنعه فأجادوا ، وله معامل كثيرة ، وله رواج في الأقطار المجاورة لمهاودة أسعاره وجماله وصلابته ، وبه استعيز في أكثر العماثر الجديدة عن الأحجار الملونة في التبليط وعن رخام إيطاليا .

ومما اشتهرت به دمشق صناعة الصياغة ، أي صناعة الذهب والفضة ، والتفنن في تصويرها بوضع الأحجار الكريمة خلالها ، تعمل منها الأكلة والتيجان والأقربة والشنوف والخواتيم والدمالج والقلائد والأطواق والخلاخل . ولما كسدت مصنوعاتها هنا جلا كثير من صناعاتها إلى بلاد أخرى . ومع هذا لا يزال ما يخرج الصياغ على اختلاف أسمائه وأشكاله وأحجاره رائجاً مقبولاً ، ويتوقف رواج هذه الصناعة على تكاثر النقد من الذهب والفضة في الأيدي وتوفر أسباب الغنى .

ومن أهم الصناعات صناعة البناء والنحت ، ومدارس القرون الوسطى في دمشق مثال بديع مما نحت ورصف . وقد ساعد على تجويد البناء تعدد مقالع الحجر بالقرب من المدينة ، وتسلسل

صناعة النحت والبناء والهندسة في بيوت بعينها . ولما اخترع الاسمنت المسلح بدأ القوم يعتمدون عليه في البناء أكثر من الجبس والكلس والآجر، فأنشئ له مصنعه معمل في ضاحية المدينة ، وثبت أن مادته قوية جداً ، وهو يقوم بحاجة البلاد الداخلية .

هذا إجمال حال الصناعات بدمشق ، وغالبها تتبدل عليها أيدي الصناع من الواحد بعد الواحد إلى أن ينيف على عشرة صناع حتى يتم ، وقد قيل إن صناعات دمشق تبلغ نحو ٣٤٠ صنعة وحرقة . ولا تزال تحدث صناعات وتموت صناعات . فمن الصناعات التي أحدثت خلال الحرب العامة الأخيرة حفظ الثمار والبقول في علب (كونسروا) وقد أنشئ لها معمل في دمشق ، وصادراته تباع في بلاد العرب وبلاد الغرب . وسبب الإقبال عليه جودة ثمار دمشق ولذيذ طعمها .

ومن الصناعات المهمة التي دثرت ولم يعد يعانيها أهلها منذ زمن طويل الوراقة أو صنع الورق . وكانت لها معامل في دمشق منذ القرن الثاني . وقد تعلم صنع الورق في دمشق أسيران افرنسيان على عهد الحروب الصليبية ، ونشرا هذه الصناعة في فرنسا ومنها انتقلت إلى أوربا . وكان العرب حملوا سر هذه الصناعة معهم

منذ أوائل القرن الثالث إلى الأندلس وصقلية . ومن هاتين الجزيرتين كانت أوربا الوسطى والغربية تستبضع ورقها قروناً . ومن الصناعات التي كان لها شأن عظيم في دمشق ويعيش بها خلّائق ، وذلك قبل اكتشاف النفط (البترول) واختراع الكهرباء ، صناعة صبّ الشمع وسكبه وقلّ من يعنى بها اليوم . وكانت تصنع في دمشق الشموع العظيمة التي تجعل على جوانب المحاريب في المساجد العظمى كأنها سارية من السوارى . وفي دمشق كانت تصنع شموع الحرمين الشريفين وتحمل إليهما كل سنة . ومن الصناعات التي ضعفت لقلة ما يصدر منها صناعة عطر الورد وما يستقطر من زهر دمشق . فهذه الصناعة كانت تصدر مقادير كبيرة منها إلى الصين والهند في القرن الثامن . وقد ذكر شيخ الرتبة في كتابه « نخبة الدهر في عجائب البر والبحر » ما كانت تغل هذه الصناعة من مال وما تنشره في موسم الزهر من الروائح الذكية في أماكنه بعد استخراج روحه ، ووصف صورة استقطارها والأنبيق التي تستخدم لها .

ودعت الحاجة خلال الحرب الأخيرة وبعدها إلى إدخال صناعات جديدة أو إتقان صناعات كادت تفقد منها لقلة من

يرغب فيها . وإنا وقد رأينا اليوم ما قام من معامل النسيج والحياكة وما شاهدنا من معامل الجوخ والدباغة والخزف والاسمنت المسلح وحفظ البقول والثمار وصنع المربيات والحلويات وغير ذلك من الأعمال التي برزَ أربابها فيها على ما شهد لهم بذلك أعظم العارفين بهذه المسائل في بلاد الغرب — إنا وقد رأينا هذا فلا يصعب علينا أن ندعى أن دمشق تخرج الآن جميع حاجياتها من مأكل وملبس ومسكون ومفروش . وإذا اضطرت ذات يوم إلى الاكتفاء بما تخرج وما تصنع ، لا ينقصها غير بعض الكماليات . وكل بلد مهما بلغ من رقيه ينقصه شيء أو أشياء تجود عند جاره ، ولا غضاضة عليه إذا قايس عليه ، بما يستخرجه مما تفرد هو بصنعه .

وبعد فقد عرفت الشام في معظم عصورها بأنها بلاد صناعية أكثر منها تجارية وكانت مدينة دمشق تفخر بأنواع من الصناعات اليدوية النفيسة حتى في الأسواق العالمية ، ومنها المصنوعات الحريرية والقطنية والصوفية التي كانت موادها الأولية من منتجات القطر ، وكذلك المصنوعات الخشبية والنحاسية والفضية والجلدية التي عرفت بطابعها الشرقي وبسلامة الذوق والمتانة . ثم تطورت

الصناعة بعد الحرب العالمية الماضية تطوراً يدعو للتفاؤل بأحسن النتائج ، وكانت السبابة لهذا التطور مدينة دمشق ، إذ تطلع أهلها إلى إنشاء صناعات آلية (ميكانيكية) مختلفة لم يكن الشرق الأوسط يعهد نظيرها كصناعة الأسمت والثقاب (الكبريت) وحفظ الفواكه والخضراوات وصناعة الجوخ والحرير بأنواعه ، وأصبحت هذه المعامل على حداتها تضاهي بإنتاجها الصناعة الغربية التي هي من نوعها ، كما أنشئت في حلب مؤسسة لصناعة خيوط الغزل ونسجها كانت عاملاً قوياً في إحياء مساحات واسعة من الأراضي بزراعتها من القطن الأميركي أو الهندي .

وتبع ذلك في دمشق وحلب بالإضافة إلى الصناعات المار ذكرها وخصوصاً صناعة النسيج الحريري التي نمت نمواً مطرداً ، تبعها صناعات التريكو والجوارب والقمصان الكتان والمستحضرات الكيماوية الصناعية والأدوية والمستحضرات الصيدلانية والمستحضرات الغذائية والمعكرونة والبسكويت والزبدة والسكاكر والشوكولاتة . والمصنوعات الحديدية والتلبس بالمعادن والمرايا السكب والبلاط والجبس والدباغة الفنية والصبغة والمطاحن والطباعة والفرش (الموبيليا)

إن التجدد الذي أدخلته دمشق على صناعاتها في غضون
عشرين عاماً رغم العقبات التي لاقتها بسبب الحواجز الجمركية
ونكبتها بثروتها من جراء خسارتها بالنقد الأجنبي في سنة ١٩٢٠
والأزمات الاقتصادية التي توالى وأثرت في التجارة والزراعة
والأراضي والعقارات لجدير باعجاب المنصفين .

ولو أن الحكومات التي توات الحكم في الشام اهتمت قليلا
بالمشاريع الصناعية وشجعته وحمتها لحصلت البلاد إبان هذه
الحرب الضروس على ما يمكن الحصول عليه من الرخاء والتوازن
الاقتصادي في الإنتاج الصناعي كما هي الحالة في بعض الأقطار
المجاورة ، على أن الوقت لم يفت والأمل معقود على مستقبل يقوم
على استقرار يضمن ازدهاراً اقتصادياً ، فتنمو صناعاتها وتجاريتها
وزراعتها ، وينعم أهلها بثروات القطر الطبيعية الكامنة التي لا تسمى
ثروة لنا إلا إذا أثبتنا مقدرتنا في استثمارها .

تجارة دمشق

كان سكان هذا البلد بما فطروا عليه من ألمعية وذكاء قبل
أن يدوى في أرجائه نبأ هذه الحرب ، يسمعون حسيبها وينظرون .

إليها كأمر واقع فأعدوا عدتهم لمواجهةها . ومنذ انقطعت العلاقات التجارية بين اليابان والولايات المتحدة أواخر عام ١٩٣٨ زادوا في مستورداتهم بقدر ما تصل إليه قدرتهم من مال وجهد وبقدر ما تمكنهم الاعتمادات الممنوحة لهم في البيوت المالية والمصارف الأجنبية ، داخل البلاد وخارجها ، مستفيدين من الدروس الاقتصادية التي ألقتها عليهم الحرب الماضية بين عام ١٩١٤-١٩١٨ ، فما جاءهم أيلول عام ١٩٣٩ إلا كان عندهم وعلى أرضهم من مختلف أنواع البضائع والسلع التي تشتد الحاجة إليها ما يعد كثرة تضيق بها محال التجارة ومستودعاتها وأنابر الجمارك وما شاع نبأ الحرب حتى سارعوا يطلبون إلى عملائهم ووكلائهم في كوبا ومنشستر ونيويورك أن يبذلوا قصارى جهدهم في شراء ما يقع تحت أيديهم من البضائع مطلقين لهم العنان في غشيان الأسواق العالمية كيفما اتفق لهم السعر والشروط . وعندما دخلت اليابان الحرب وانقطعت البواخر التي كانت تجوب البحار إلى شواطئ الشرق الأدنى أخذ السوريون بعد أن نزل الحلفاء أرضهم يولون وجوههم شطر مرافئ الهند الجنوبية جاعلين من بومباي دار هجرة تجارية يحملون منها عن طريق الخليج الفارسي

أولاً وقناة السويس ثانياً ما تمس حاجتهم إليه من خيوط وأنسجة ومواد غذائية ، فما عَضَّتْهم الحرب بقلة كما وقع لهم في الحرب الماضية وأحسنوا الاستفادة من كل معاونة يعاونها البريطانيون في كل بلد ينزلونه .

مضى العام الأول والعام الثاني من أعوام هذه الحرب ودمشق خائفة ، كأنما تعيش بين أجفان الردى وهى يقظانة نائمة ، فلم يتسع لها طريق العمل بشيء يتفق مع ميراثها الصناعى ، وفى الأعوام التالية أخذت قدرتها على الإنتاج تزيد وكانت فى زمن السلم تطفى عليها المصنوعات الخارجية ، والأعمال وليدة الحاجة وربيبه الضرورات . ولما كان الشعب السورى تجارياً بالفطرة ، والمغامرات فى دمه وروحه فقد تقلب فى تجارته خلال هذه المدة صاعداً وهابطاً ، فإذا نُبِئَ بما يشمر بطول الحرب ترتفع عنده الأسعار ، وإذا ثبت له قصرها تهبط وتتدنى .

وذهبت دمشق فى هذه الفترة بقيادة الحركة الاقتصادية ، وأخذت تعين الاتجاه هبوطاً وصعوداً وحركة وجموداً ومنها ينتقل هذا الاتجاه إلى كبريات المدن والخواضر ، فهى أذن تستمع لكل ما يحمله الأثير من نبأ تُقَلَّبُ فيه الفكر ، وتحكم به على

الغاية ، ولولا تقلب أسعار النقد الذهبي وارتباطه بقلوب أبناء هذه البلاد الذين يؤمنون به إيماناً أوحى به الأعوام الخالية ، لما اختلفت الأسعار وارتدت التجارة طابع المضاربات البعيدة عن الطريق السوى .

إن طبيعة الحرب توفر الرزق لأصحاب الحظوظ الذين تواتيهم الأحوال أكثر مما توفره للمفكرين الذين يستخرجون النتائج من المقدمات ، والتجارة في الحرب تتمشى مع المغامرات أكثر مما تسير بالحزم والأخذ بالأحوط . وساعدت المناسبات أصحاب اليد الأولى من المستوردين ، فكان نصيب مدينة بيروت تتلوها مدينة حلب أوفر قسطاً في الحصول على المنافع الرئيسة بالنظر لوقوف تجار هذين البلدين في طبيعة الفئات المستوردة والمدخرة ، ويأتى حظ دمشق وأخواتها بقية المدن السورية في المؤخرة لأن العاملين في تجارة هذه المدن يستبضعون على عادتهم من أصحاب المتاجر القاطنين في الثغور والمرافىء .

نحن على مثل اليقين بأن البلاد السورية سترتدى بعد الحرب الطابع الصناعى أكثر من الطابع التجارى الذى كانت ترتديه قبلها ، فهى بلا شك ستقيم المعامل الصناعية على اختلاف أنواعها

متى توفرت لها الأسباب ولان لها الحديد الذي يستعصى عليها وجوده اليوم ، وهي كبيرة الأمل في الحصول على المواد الأولية التي تستلزمها الصناعات ، متى تهيأت الأسباب للقائمين بالأمر أن يستنبتوا الأرض حق الاستنبات ويعدنوا المعادن المركومة في أحشائها ، وتتعاون في القطر القوى الثلاث : القوة الإنبائية والمعدنية في أرضه ، والقوة الفكرية في سكانه ، والقوة اليدوية التي خصها الله بالإبداع ، وأجرى لها ما أجرى من حسن الذوق . فإذا ما تم لهذا القطر أن يكون وحدة اقتصادية ففي مائه وهوائه وتناسق فصوله قوة كامنة تأتي بالعجب العجيب .

خرجت البلاد من الحرب الماضية وفيها القناطير المقنطرة من الذهب الذي دعت إلى إنفاقه الضرورات العسكرية ، وما أسرع ما أضاعت بعد تلك الحرب ثروتها الأصلية والفرعية ، فكانت أشبه بأم توفى عنها زوجها فترك لها مالا ولم يترك لها عقلا يدبره ويحسن القيام عليه . فإذا قدر لهذه الأرجاء أن تعتبر من الماضي وقد رزقتها هذه الحرب مالم تكن تحلم به من مال أنفقته فيها الجيوش الخليفة فارتفعت نسبة الأموال المتداولة إلى حد لم تبلغه في عهد من العهود ، فإن مستقبلا مليئا بالآمال الجسام

ينتظرها فتنبوا عرش الاستقلال الاقتصادي الذي فقدته
دهراً طويلاً .

هنالك ساحات اقتصادية تتآرز فيها بعد الحرب الجماعات
القاطنة في هذه الديار والجماعات الذين يوافقونها ، فما على
السوريين إلا أن يأخذوا أهبتهم للنزول إلى تلك الساحات ،
وإذا نزعنا الروح الفردية التي تأصلت فينا ، وتقمصنا روح
التعاون في الأعمال الصناعية الكبرى ، يضعف تأثير الجماعات
التي ستغزو المرافق الحيوية ، مستندة إلى نظام تعاوني مستمد
من أقوى النظم المالية القائمة على مبدأ المنافع المشتركة ، فالمال
قوة وأقوى ما فيه حسن القيام على تصريفه في وجوه الأعمال
المستندة إلى نظام قويم .

أصبحت الثروة العامة موزعة بين الجميع في هذه الحرب ،
فالمنتجات الزراعية ومكاسب أصحاب المتاجر والأعمال الحرة
هي في الجملة على غير ما كانت عليه قبل الحرب ، ومتى صارت
الأموال إلى اليد التي تحسن القيام عليها لا تعد إلى دفنها وهاجعة
تحت الأرض أو حبسها في صناديق مقفلة ، فإن الانتفاع بها يعم
جمهرة الشعب وعامة طبقات الأمة .

إن دمشق تتمتع بعد أن مضى على الحرب خمسون شهراً
بأكثر ما تحتاجه من غذاء وكساء، لم يعدم فيها إلا ما لا بال له ،
ولئن تصاعدت قيم أكثر الحاجيات فذلك ناشئ عن أن
مستوى المعيشة العامة قد ارتفع جملة ، وارتفعت معه النسب في
الأشياء المنقولة وغير المنقولة، والمقياس في أزمنة الحروب هو وجود
الحاجيات الضرورية أو عدم وجودها ، والفضل في ذلك
لدمشق وللمنتج الدمشقي ، وللتاجر الذي خاطر بماله ونفسه لتموين
بلده ، وللاحلفاء الذين مونوا هذا البلد، وخاصة في الأيام التي كانت
فيها أمواج البحر المتوسط تتلاطم بالدماء

غوة دمشق

لا بد للباحث في دمشق أن يعرض للكلام على غوطتها .
فالغوة ودمشق لازم وملزوم ، ومعنى الغوة من الغاط وهو
المطمئن من الأرض . والغوة ما أحاط بدمشق من بساتين
وقرى ، وسقى على الأكثر بمياه بردى ومشتقاته . يبدأ أحدها من
فوهة الوادي عند الربوة غرباً ممتداً إلى المزة وداريا وصحنايا
والأشرفية وسبينة وسبينات في الجنوب ، وينتهي في الشرق
بالريحان والشفونية وحوش مباركة وحوش الأشعري وحوش
المتبن وحوش خرابو والفضالية والنشابة وبيت نايم ، وينتهي
في الشمال بجبلي قاسيون وسنير . ويشرف الجبل الأسود
وجبل المانع على الغوة من الجنوب كما يشرف عليها جبل
الثلج أو جبل الشيخ من الغرب ، ويحدها شرقاً إقليم المرج ،
ومن هنا تفتح حدودها فتحة طويلة حتى الحماد أراضي بادية
الشام . ويقدر طول الغوة بنحو عشرين كيلومتراً تقريباً ،
ويختلف عرضها بين عشرة وخمسة عشر كيلومتراً وتبلغ
مساحتها نحو ٤٠٦٠٠ هكتار أي نحو خمسة وستين ألف فدان

بفدادين الغوطة أو نحو مائة ألف فدان مصرى ، ومدينة دمشق داخلية في هذه المساحة وتحتوى الغوطة على اثنتين وأربعين قرية عدا الحدائق والبساتين المحيطة بها ، وهى يتألف منها عشر قرى كبيرة . وفى الغوطة قرى كالمدين مثل دومة وحريستا وعربيل وجوبر وداريا وكفرسوسية والمزة . ومجموع نفوسها لا يقل عن مائة ألف نسمة . وتربها أجود تربة تُسمد كلما أرويت لأن أنهارها تدخل دمشق وتحمل قاذوراتها ، وهذا مما يعاون على خصبها وإمراعها . وفى الغوطة تجود جميع الحبوب والبقول وعامة الأشجار المثمرة ، ما خلا النخيل والحوامض بسبب برد الشتاء . والغوطة تمون دمشق ومنها أكثر مادة حياتها، ولولا الغوطة ما كانت دمشق . وهى فى مجموعها من أجل متنزهات العالم بما حبتها به الطبيعة من جمال أشجارها وخصب أرضها ، لا تتعب من إخراج خيراتها صيف شتاء . واشتهرت فاكهة الغوطة بلذيد طعمها وعجيب نكهتها . فكثراها ودراقها ومشمشها وتفاحها وسفرجلها وأعنايبها مضرب الأمثال ، قال الصلاح الكتبي : وروى عن بعضهم أنه اتفق أن مريوما ببعض شوارع القاهرة ، وقد ظهرت جمال كثيرة حمولتها تفاح فتجى

من الشام ، فعبرت روائح تلك الحمول فأكثر التلفت لها ،
وكانت أمامه امرأة تسير ففطنت لما داخله من الإعجاب بتلك
الرائحة ، فأومأت إليه وقالت : هذه أنفاس رَيا جِلِقا . وهذا
الشر من أبيات لطراد بن علي الدمشقي المعروف بالبديع ،
اشتهرت وغنى بها المغنون وهي :

يا نسيّاً هب مسكاً عبقاً هذه أنفاس رَيا جِلِقا
كفّ عني، والهوى، مازادني برد أنفاسك إلا حُرَقا
ليت شعري نقضوا أحبابنا يا حبيب النفس ذاك الموثقا
يا رياح الشّوق سوقى نحوم عارضاً من سحب عيني غدقا
وانثرى عقد دموع طالما كان منظوماً بأيام اللقا

قال ياقوت : وبدمشق فواكه جيدة فائقة طيبة تحمل إلى
جميع ما حولها من البلاد ، من مصر إلى حرّان وما يقرب ذلك
فتعم الكل . وما برحت الغوطة مقصد أهل دمشق للنزهة
والقصف ، وقد أخرجت طائفة كبيرة من العلماء والأدباء في مختلف
العصور، وهي في الواقع بمثابة أحياء تبعد قليلا عن العاصمة الكبرى ،
ولا غنى لأبنائها عن الاختلاف إلى العاصمة كل يوم ، فالاختلاط

بين الغوطيين والدمشقيين متصل ، يألف بعضهم بعضاً ويتزوج بعضهم من بعض ، والغوطية تصبح دمشقية بعد مقامها قليلاً في دمشق ، والدمشقية تصبح فلاحه غوطية إذا أقامت في الغوطة سنين . نقول فلاحه أى متمرنة على الأعمال الزراعية والأعمال البيتية التى تستلزمها حياة القرى . وفي الغوطة نزل كثير من العرب ، تشهد لذلك الفصحُ الباقية في لهجتهم ، ومن العرب الذين نزلوها غسان و بطون من قيس وبها قوم من ربيعة وبعض بطون من كلب ، ومن بنى زبيد فرقة وآل فضل والحريث من زبيد من القحطانية .

وللنواجى الشاعر في الغوطة :

ألا إن وادى الشام أصبح آية محاسنه ما بين أهل النهى تُتلى
وإن شرفت بالنيل مصر فلم تزل دمشق لها بالغوطة الشرف الأعلى

والشرف الأعلى موضع نزه من غربى دمشق يعلو عن قرارة الوادى . وليس لك في الغوطة أن تقول هذا المكان يفضل ذاك ، فكل محالها ومنازلها جميل تأخذ بمجامع القلوب كما قال أحدهم :
أنى اتجهت رأيت ماءً سابحاً متدفقاً أو يانعاً متهدلاً

وكأنما أطيارها وغصونها نغم القيان على عرائس تجتلي
وكأنما الجوزاء ألفت زهرها فيها وأرسلت الحجر جدولا
ويمر معتل النسيم بروضها فتخال عطاراً يحرق مندلا

أو كما قال فتيان الشاغوري :

كأن طيور الماء فيه عرائس جلين على شاطئه خضر الغلائل
إذا كرعت فيه تيقنت أنها تزق فراخاً وهي زغب الحواصل
وكم سمك فيه عليه جواشن من التبرصيغت وهو بادي المقاتل
جريح بأطراف الحصا نحريره أنين له من حسن تلك الجنادل
إذا قابل النهر الدجي بنجومه أرانا بقعر الماء ضوء المشاعل
تغلغل في الوادي فوافي كقينة منعمة حسناء ليست بعاطل
فعلقتها حتى انثنت مشعلة تقل على ظهر الصفا بطن حامل

يروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه لما قدم الشام رأى
الغوطة ونظر إلى المدينة والقصور والبساتين ، فتلا قوله تعالى :
« كم تركوا من جنات وعيون ، وزروع ومقام كريم ، ونعمة كانوا
فيها فاكهين ، كذلك وأورثناها قوماً آخرين » . و يروى أن
أمير المؤمنين المأمون العباسي أقسم يوماً وقد نظر إلى أشجار الغوطة

ونباتها ، أنها خير مغنى على وجه الأرض ، وقال : عجبت لمن يسكن غيرها كيف ينعم مع هذا المنظر الأنيق الذى لم يخلق مثله .

وصى الفرطة

أتى لى فى الغوطة ستون سنة ، تسلمنى الطفولة إلى الشباب ، والشباب إلى الكهولة ، والكهولة إلى الشيخوخة ، ولاقيت ربيعها وصيفها وخريفها وشتاءها ، وما لقيت منها إلا نضرة وسروراً .

أنعشنى هواؤها ، وأدهشتنى أرضها وسماؤها ، وما فتئت منذ وعيت أقرأ فى صفحة وجهها الفتان آيات الإبداع والإعجاز .
فى ربوعها شهدت الطبيعة تقسو وتلين ، وتغضب وترضى ، وتشح وتسمح ، فراغنى جمالها وجلالها ، وشاقنى تجنبها ووصالها .
نشقت أنفاس رياها وهى ترفل فى زهرها ووردها ، واستهوتنى مجردة من ورقها وثمرها ونباتها ، فأخذت بها كاسية عارية ، وطابت لى مُطَيِّبَةً وَتَفَلَّةً .

تربة تقبل وتمحل ، وأدواح تعقم وتثمر ، وجداول تفور وتغور ، وآبار تفيض وتفيض ، وجو يغيم ويصحو ، ودو

يعبس ويضحك . وهناك هناء ، وهناك يسر ، وهناك شقاء ،
وهناك عسر .

أتى الجراد غير مرة على زرعها وثمرها ، وسطت الحشرات
على خضرها وشجرها ، وأحرق الصقيع حبوبها وفاكهتها ، وعدا
الموتان على دواجنها وماشيتها ، وطفى الماء على أدنى بقاعها ،
فأودى بما أنبتت وبسقت ، وعادت هذه الأم الرؤوم تدر على
أبنائها لبناً سائغاً ، وتفيض عليهم من عطفها وحنانها كل جميل .

عهدى بها ودمن عشرات المزارع الخربة ، بما توالى عليها
من نكبات الزلازل والسيول والأوبئة والجماعات ، إلى جانب
ألوف الأفدنة تصبح بالدهوب حدائق غلباً ، وكانت بالأمس بين
مستنقع وبيل ، ومرج أفيح . في الغوة قرى كبيرة تداعت ،
وقرى كبيرة لم يعف رسمها ، وفيها أشجار لا تعيش غير بضع
سنين ، وأخرى مباركة يحسب عمرها بالقرون .

همت بسحرها في سحرها ، وبشمسها تأفل وراء شجرها ،
وراقنى وابلها وطلها ، ونداها وضبابها ، وجليدها وجمدها ،
وثلجها وبردّها ، ودمقها وزمهريرها ، ونسيمها وأعاصيرها .

غنتى طيورها بأطيب الأنغام ترددها من وكناتها فى جناتها ،
وما تبرمت الأذن بنعيق البوم ونعيب الغربان ، وعواء بنات
آوى ، ونباح الكلاب ، ونقيق الضفادع ، فى المظلم والمقمر من
لياليها ، واهتزرت للديكة تصيح ، والغنم تثأج ، والمعيز تشغو ،
والبقر ينخور ، والخيل تصهل ، والحمير تنهق .

أقبلت مرة أقلب حديقة لنا أنقى أدغالها ، وأعزل صخورها
وأحجارها ، فنبشت على ذراعين من سطحها مقبرة فيها قليل
من عظام نخرة ، وكثير من خواتم وأقراط وأساور ودمالج ،
كانت فضتها ونحاسها وحديدتها وزجاجها تتفتت لساعتها
بأيدينا .

وما فرقنا بين الرجل والمرأة من نزلاء مدينة الموتى ، وما بان
معنا الشاب من الفتاة ، ولا الشيوخ من العجائز ، ولا إذا كان
من لحدوا فيها مجوساً أو صابئة أو نصارى أو مسلمين ، ولا إن
كانوا من العرب أو السريان أو اليهود أو الروم ، وغاية ما نم
عليه ذاك العظم الرميم أنه بقايا أشلاء بشرية كان أربابها يهيمجون
ويسكنون ، ويلوؤمون ويبرون ، ويشقون ويسعدون .

وأبصرت على خُطى قليلة من المدفن أثر حوض بديع شيد
بالآجر والحجر النحيت ، يظهر من ترخيمه أنه بناء بان صناع اليد ،
وانتهيت إلى ديماس عميق فيه جرار عظيمة ، وأدوات نشأت
من مدنية كانت بنت هذه التربة الزكية ، نَعِمَ بها أهلها ما قدر
لهم أن ينعموا ، فلما ناداهم حادى الرحيل تخلوا عن مصانعهم
ومرافقهم ، وغادروا ديارهم كأن لم يغنوا فيها

أدركت أجيالاً ثلاثة من الناس ، وقبلى رأى الرادون ألوف
ألوف الألوف ، وكلهم كان شأنهم كشأننا ، خلَقُوا على صورتنا ،
وركبت فيهم أحاسيسنا وغرائزنا ، واستحكمت فيهم الشهوات
والمطامع ، وكانت لهم آمال وأحلام ، نزع صالحهم وطالحهم ،
وراح لطيفهم وكثيفهم ، وما عرفوا لِمَ جاءوا ولا إلى أين ذهبوا ،
ولِمَ جدُّوا وجهدوا ، ولم انصرفوا على ألا يرجعوا . أما أجسامهم
فقد نخرت وتبخرت ، وتبعثرت ذراتها فى الفضاء . وأما
أرواحهم فانتقلت إلى عالم لم ندركه بالحس ، ولا قُدِّر معنا
بحساب ، وما علمنا عنه إلا ما أشار إليه الكتاب .

ذهب من درجوا على هذا الصعيد الطيب ، تاركين ما كدحوا

وجمعوا ، ناسين من أحبوا وأبغضوا ، وما حال دون قفولهم
عطف الأمهات والزوجات ، ولا بكاء الأولاد والأخوات .
هلك الغنى والفقر ، والصحيح والمريض ، والحبيب والبغيب ،
وناح النساء على الأعزة الذاهبين يندبون ويولولون ، ثم لحق
النائحات والنوادر بالصحاب والصواحب .



حقاً أن الغوطة كانت على الأيام ساحة تحوّل ، تحوّلت فيها
حتى أزياء الجنسين من سكانها ، فغير الرجال في هذه الحقبة
لباس رؤوسهم ثلاث مرات ، وكذلك كان دأب النساء
بملآتهن .

شاطرت القوم أفراحهم وأتراحهم ، وكأثرتهم في مواسمهم
وأعيادهم ، ورأيتهم يلبسون الخلق البالى ، ورأيتهم يلبسون
الزّواق الحرير ، رأيتهم يطعمون أطيب الطعام وأمرأه ، ورأيتهم
لا يشبعون من خبز الذرة والشعير ، راقبتهم في سكوتهم وهوشاتهم ،
وفي تلاتهم ومشاكلهم ، وفي سعتهم وضيقهم ، وعاشرتهم
وسامرتهم ، على نقص محسوس في تربيتهم .

أدركتهم يستعوضون عن اللبن والطين والقصب والكلس
 في بنيانهم بالقرميد والآجر والحجر والاسمنت ، وعهدتهم
 يمتطون الفرء من الخيل والبغال والحمير ، ويحملون أثقالهم على
 الجمال ، ويجرونها بالثيران ، ثم اتخذوا المركبات والعجلات ،
 وركبوا الدراجات والسيارات .

أدركتهم تبيض الأميَّة وتفرِّخ في رؤوسهم ، ويعم الجهل
 كبيرهم وصغيرهم وذكورهم وإناثهم ، وما كانت عقول الأذكاء
 منهم تصل إلى أبعد من القرى المجاورة ، واغتبطت أن صار
 بضعة في الألف من شبانهم وكهولهم يتلون الصحف والكتب ،
 ويستطلعون طلع الأخبار ، ويعنيهم النظر في المصالح العامة ،
 ويظهرون في مظهر من يحاول مجاراة الزمن في حضارته ،
 يستبدلون الأدوات الحديثة في الحرث والتذرية والعصر
 والاستخراج بأدواتهم القديمة التي جمدت على حالة واحدة
 لم تتبدل من عهد عاد وثمود . وكل ذلك ببطء وتثاقل ليناسب
 اقتباسها قانون الزرع والغراس عندهم : تنمو بحرارة معتدلة
 وإذا سُقيت سقيت بمقدار .

إقليم تتصادم عناصر الطبيعة فيه بلا انقطاع ، الفناء رابض
أبدًا إلى جانب البقاء والتبدل على قيد غلوة من الاستقرار .
عانت كل هذا فرجعت بمنظر متشاكلة ، لا تزال تتكرر على
مرّ الجديدين ، لم أهتم سبيلًا إلى تعليلها ، ولا أدركت ولا أدرك
أرباب المدارك هذا السر الدفين في صدر الليل والنهار .

هنا يبدو للعين كفاح الغوطي في كسبه ورزقه ، وصراعه
في سبيل شهواته وأثرته ، هنا تلمح جور القوى على الضعيف ،
وأن الإنسان في هذه الأرجاء كان على نحو ما هو في كل مكان ،
ظالمًا ومظلومًا ، وقاتلاً ومقتولًا ، وعزيزًا وذليلًا .

لحظت الغوطي موسعًا عليه ، ولا حظته مقترأ عليه . عهده
مرهقًا بضروب الجبايات ، وألفيته يؤدي الجباية طيبة بها نفسه ،
وأدركت الفقير ينوء بحمل كل عبء ، والغني يكاد يعنى نفسه
من أداء كل شيء .

وجدت الفلاح لا ينسل القدر اللازم من الأولاد يستعين
بهم على استخراج خيرات حقوله ، ولقيته وقد زاد السكان ستة
أضعاف في ستة عقود ، وإذا بأرباب الضياع تضيق بهم رباعهم

فلا يجزئهم ريع ما يملكون ، وعادوا يقتنون الأرض بالثمن
الغالى ، ويغلون فى الغرام بها ، وهم الذين كانوا يحاذرون امتلاك
شبر من ترابها فراراً من المغارم والعوارض .



حزنت على الغوطى عبداً ، وفرحت له حراً ، آلمنى عبوسه
وتشاؤمه ، وسرّنى ضحكك واستبشاره . كان يرمضنى كلما وقعت
عينى عليه يُستخر كالبهايم ، ويقنع بالسياط ، ويلطم ويلكم ، وهو
صابر خانع . ثم ابتهجت يوم نُفّس خناقته ، وعومل معاملة
الإنسان . أما هو فلم ينشب أن نسى ما كان يحل به ، وعاد
يتمرد ويطغى .

نظرت إليه يتهافت على تجويد زراعته ، ونظرت به يهمل
إثارة تربته ، ويزهد فى رعية ماشيته ، طالعت به يحيى الليالى
لا يبالى أذى البرد ، إذا كان ذلك فى سقى زرعه وجمع حبه
وثمره ، وطالعت به فى حمارة القيظ يكد وسط حقله فى حرّ يزهد
الأنفاس ، وهو جدّ طروب كأنه فى مجلس أنس يلذه ما يسمع
يرى .

وسجلت أن ضواري الغوطة لا تستشري، والشر في أرجائها
محكوم عليه بالزوال، ثبت لي هذا بعد أن رأيت ثعالبيها وضباعها
توشك أن تبید، وبعد أن أيقنت أن كواسرها وجوارحها أقل
من عصافيرها وحمامها وقيدت من أخبار الغوطة أنها منعمة
محسنة على وجه الدهر، وأن بنيتها أصحاب مضاء يعدون لكل يوم
قسطه من العمل، ويقسمون جهودهم أقساماً بحسب المواسم،
على ما قسمت الفطرة سنتهم إلى فصول، استوفى فيها كل فصل
حكمه، وأن في أرضهم المحبوبة كعظم بلاد العرب قوى منظمة
مستثمرة، إلى جنب قوى ضائعة منتشرة.

اقراء

كلمة شكر

نتقدم بخالص الشكر إلى القراء الذين
تفضلوا بإبداء ما لديهم من اقتراحات
وملاحظات على هذه السلسلة ، وإننا نرحب
دائماً بآراء القراء وانتقاداتهم لأننا نعدّ
هذا خطوة موفقة في سبيل التعاون على
الوصول بهذه السلسلة إلى الغرض الذي من
أجله أنشئت ما

مطبعة المعارف ومكتبتها بصر

اقراء

آراء بعض القراء في هذه السلسلة

من مصر :

- ◆ إنها خير ما قدمته لنا هذه الحرب ...
- ◆ ليس لدينا ما نقوله إلا أن نشكر إدارة مطبعة المعارف ومكتبتها على أن أتاحت لجمهور القراء فرصة لارتشاف منهل من مناهل الثقافة العالية والأدب الرفيع ...
- ◆ إن سلسلة اقراء رأس مال قومي عظيم ، ندخره لمستقبلنا وفضلاً عن ذلك فإنها كلها ممتعة كبيرة الفائدة ...
- ◆ إنه لحدث عظيم في تاريخ الكتاب العربي قفز به إلى الأمام شأواً بعيداً في نهضة مباركة شاملة لألوان النشاط العقلي والفكري ، فشكراً للقائمين على إبراز هذه السلسلة ...
- ◆ إنها حديقة شعبية لثمار الأفكار قطوفها دانية يرتادها ويتناول ثمارها الجميع بأرخص الأسعار ...

من السودان :

- ◆ لا عيب فيها غير أنها متقنة الطبع رخيصة الثمن غزيرة الأدب الذي يتذوقه الخاس والعام ...

من فلسطين :

- ◆ أم حداث أدبي مبتكر في الشرق العربي ...
- ◆ أظهرت هذه السلسلة للغرب أن في الشرق أدباً يعاشي أدبهم وسيسبقه ...

من شرق الأردن :

- ◆ فائحة طيبة لوحدة عربية ثقافية متوقعة ...

من سوريا ولبنان :

- ◆ كنت أنتظر أن أقرأ في سلسلة اقرأ كيف أن الأدب في مصر صار تجارة ، لكن الواقع كذب ظني . فإن فكرة إخراج هذه السلسلة لأقرب مورد يستطيع المتعطر أن يفترق منه ...
- ◆ لاشك أن هذه السلسلة التي هي الأولى من نوعها في الأدب العربي وبما جاءت به من بعض المبتكرات قد أفادت الأدب إفادة جلية ...

من العراق :

- ◆ مجهود جبار تقدمه المعارف لخدمة القراء في البلاد العربية كافة ...
- ◆ سلسلة قربت القراءة المجدية إلى أكبر عدد ممكن من أبناء العروبة ، لتعيش مصر وليعيش أدباؤها ...

ظهر حديثا



- ٢٥ مع أبي العلا، في سجنه (طبعة ثالثة) للدكتور طه حسين بك
- ٦٠ الملك فؤاد « ملك النهضة » للاستاذ كريم ثابت
- ٢٥ امرؤ القيس « الملك الضليل » للاستاذ محمد فريد أبو حديد
- ٢٥ شللي للاستاذ أحمد الصاوي محمد
- ٢٠ الشخصية (طبعة رابعة) للاستاذ محمد عطية الابراشي
- ٢٠ حيراث للأُميرة شـيـوـهـكار
- ٢٠ العلم في الحرب للاستاذ ابراهيم امين كحيل
- ٥ نظام الحكم في بريطانيا العظمى للاستاذ محمد عوض ابراهيم بك



ملتزم الطبع والنشر

مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

أدب رفيع يغذو الضمير ويشير الفكر

ص		
١٥	مفرق الطريق	مسرحة
١٠	سوء تفاهم	أقاصيص
١٥	مباحث عربية	في العروبة والإسلام

من تأليف
الدكتور بشر فارس



ملتزم الطبع والنشر
مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر



رمز

الطباعة الأنيقة
والمؤلفات القيّمة
التي تمتاز على الدوام
باستسحان جمهور القراء
في جميع الأقطار العربية

مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

المحل الرئيسي بالقاهرة : ٧٠ شارع الفجالة
فرع الاسكندرية : ٢ - ميدان محمد علي
وكالة فلسطين وشرق الأردن : شارع مأمن الله بالقدس

اقرأ

سلسلة كتب شهرية للجيب يشترك في تأليفها
أشهر الكتاب في مصر وسائر البلاد العربية
تصدرها مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر



التمن بالنسخة

٦٠	سوريا ولبنان	٥٠ مليما	مصر
٦٠	العراق	٥٥ مليما	السودان
	فلسطين وشرق الأردن	٦٠ ملا	

الكتاب التالي يظهر في مايو ١٩٤٤

Bibliotheca Alexandrina



0601508